قُبلة حارة الألوان

أميرة سعيد عز الدين

قُبلة حارة الألوان/ قصص

أميرة سعيد عز الدين

الطبعة الأولى ٢٠١٠،

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أيمن جمال الدين

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٤٦١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٢٩- ٢

قُبلة حارة الألوان

أميرة سعيد عز الدين

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء......

وعيت معنى كلمة "كتاب" على يدي أمي، و تعلمت عشق الحكايا مع سريان نغم صوتها في خيالي. ومن حروف أبي اكتشفت أننا قادرون على خلق الكلمة وتلوينها بريشة من لون الوجدان. ومن عيني شقيقتي الصغرى "رانيا" علمت أن للقراءة نبضاً حياً.

أما هي فقد تعلمت منها احترام الحرف وما وراءه من معنى، تعلمت أن الخالق قد استودعنا أقلامنا أمانة يجب أن نثبت مدى أحقيتنا بها مع كل حرف.. إنها أستاذتي الغالية / أ. سامية أبوزيد.

فإليهم جميعاً أهدى كلماتي :

أمي و أبي..

"رانيا"..

أ. سامية أبوزيد

الأميرة تترجل عن جوادها

وها هي الأميرة تترجل عن جوادها لتقعد على الكرسي الهزاز في ضوء القمر بانتظار الفجر لتعرف سره.

في مجموعتها القصصية الثانية، تحاول القاصة الشابة أميرة سعيد عزالدين أن تؤكد موهبتها فتنتقل بنا في ردهات النفس البشرية وتسبر بنا أغوارها بحثاً عن المشاعر الإنسانية لا الأحداث المثيرة، وها هي تفتش عما يدور بالنفس الإنسانية إزاء حدث ما عوضاً عما يدور من أحداث.

ولا يعني هذا خلو مجموعتها من الأحداث أو الحبكة، بل يعني أثر الحدث على النفس الإنسانية حسب تصورها الخاص، وفي موضع آخر يأتي الحدث نتيجة لما يدور بداخل تلك النفوس التي شخصتها بقلمها الرشيق الذي يحمل من ملامحها الكثير، فترى فيه التأمل مع التوثب جنباً إلى جنب، فمن يقرأ لها كأنما يقرأها.

فهلم بنا نتعرف معاً على أميرة سعيد عزالدين في جلسة حول الراكية.

بقلم: أ. سامية أبوزيد

بقعة زيت

عادت تدفع باب الدار الصامتة في صخب وحيد مترعج من طرق السنين على جدران الفؤاد، أن عودي الآن. في صحن الدار وجدت بقايا رماد.. بقايا بارود.. بقايا أُناس كانوا هنا أحياء!

أب وأم وأخوة في الغرف الدافئة- رغم بعدها البارد- أمضوا الليالي سعداء..

لم يبق هنالك حجر على آخر فقط سور عال أحاط أطلال الدار، ويا للعجب من تفتت القلب وبقاء الهيكل على هذا القيام!

في جذع الشجرة الهرمة لا يزال قلب آخر محفوراً!.. كان يوماً قلبها.. مرسوم بحرف اسمها..

هربت منها بقايا جدائلها لتتساقط ظلالاً لا تحجب عن عينيها سوى حرارة النهار، وتلقيها أكثر بين يدي الذكرى والأيام.

في جذع الشجرة وجدت قلباً، ووجدت أيضاً خبراً!..

إنه منه.. حبيبها!..

كيف تأتى أن حفظته هنا يد الدمار؟!..

أيد الدمار حانية فقط على رسالة غرامها؟!.. وبلادها؟!.. ألم تستحق الرحمة؟!

كأنه في بلاد أخرى غير التي هي، لم تنهر بوطئات الفرنجة والمستعربين.

وجدت منه مخطوطاً اصطبغت أحرفه بقطرات من دماء:

"حبيبتي..

في المساء سأجيء إليك فلا تصدقي أن قد أصابني سوء، تلك ليست دماء بل هي حنائك يا عروس الفؤاد. يا عمري أنا بكل خير وسآتي لك لنبني وطناً.. وأرضاً، فلا تترك الأرض بحق ما منحك الله من إيمان. أعلم كانت ليلتنا تلك موعد العرس، ولكن سرادق العزاء كبـــــير..

أعلم لم يبق لأحدنا من الأهل سوى الآخر فلا تذهبي، واجدلي خصلاتك أكثر حتى أعود فتحلها يداي..

سأعود و انتظري يوم اللقاء."

انهارت فلم تجد معتمداً سوى على حجر، تلقى منها نفس الترف يوماً منذ سنوات بعيدة، يوم أن وجدت يد الدمار طالت دياره ورسمت منها لوحات العذاب والنحيب..

قد رحل الحبيب!!

شحذت يومها الحدين الحادين أكثر، وقبضت على ضفيرتها الغجرية بكوة يدها لتنشرها على حوافه، جديلتها الكستنائية تحممت من الفُرات وجففتها شموس المدينة، حين كانت الشمس تشرق هناك!

أسقطت خصلات شعرها شهيدة فوق قدميها ترويها عبرات دجلة في عينيها، ما كانت تعلم بخبره في جذع الشجرة الحبيبة!..

تلك العروس سقطت سبية يوم الزفاف، وفي أعراف العرب السبية لا تتحلى بالجدائل..

لا تضع العطور ولا يمسها الحلي أو الحرير..

واليوم تعلم أنه هناك في مكان ما، تراه أين أليف الروح؟!

ليس من الصعب أن تقلب المدينة الآن نابشة عنه خلف كل حجر، فالمدينة كلها أصبحت مجرد هياكل من حجر!

وفي أرض ما.. وزمن ما.. وجدتـــــــه..

ليس نفس من حلمت به يحل جدائلها، ولم يتبق داع لحدادها على من لم يرحل، فها هو ذا.. وليته كان رحل!..

فوق فوهة بركان كان قصره، حاكم عظيم بأمره يأتمر الكثيرون....

- أهذا أنت يا (زين)؟!

- حبيبتي، قد بنيت الدار.

- أفوق هذا الدمار؟

- أنت مليكته، فما يهمك من سواه؟

- تحولت بلادي على يديك لخزائن من ذهب أسود فقط لتشييد قصورك على أطلالها؟

- عزيزتي..

ومنحها شالاً حريرياً يسكن رجفتها، وكما لم تستسغ قصوره لم تستسغ يده الممدودة لتحل جدائلها المنتحرة منذ سنوات ولا حريره الملوث ببقعة زيت..

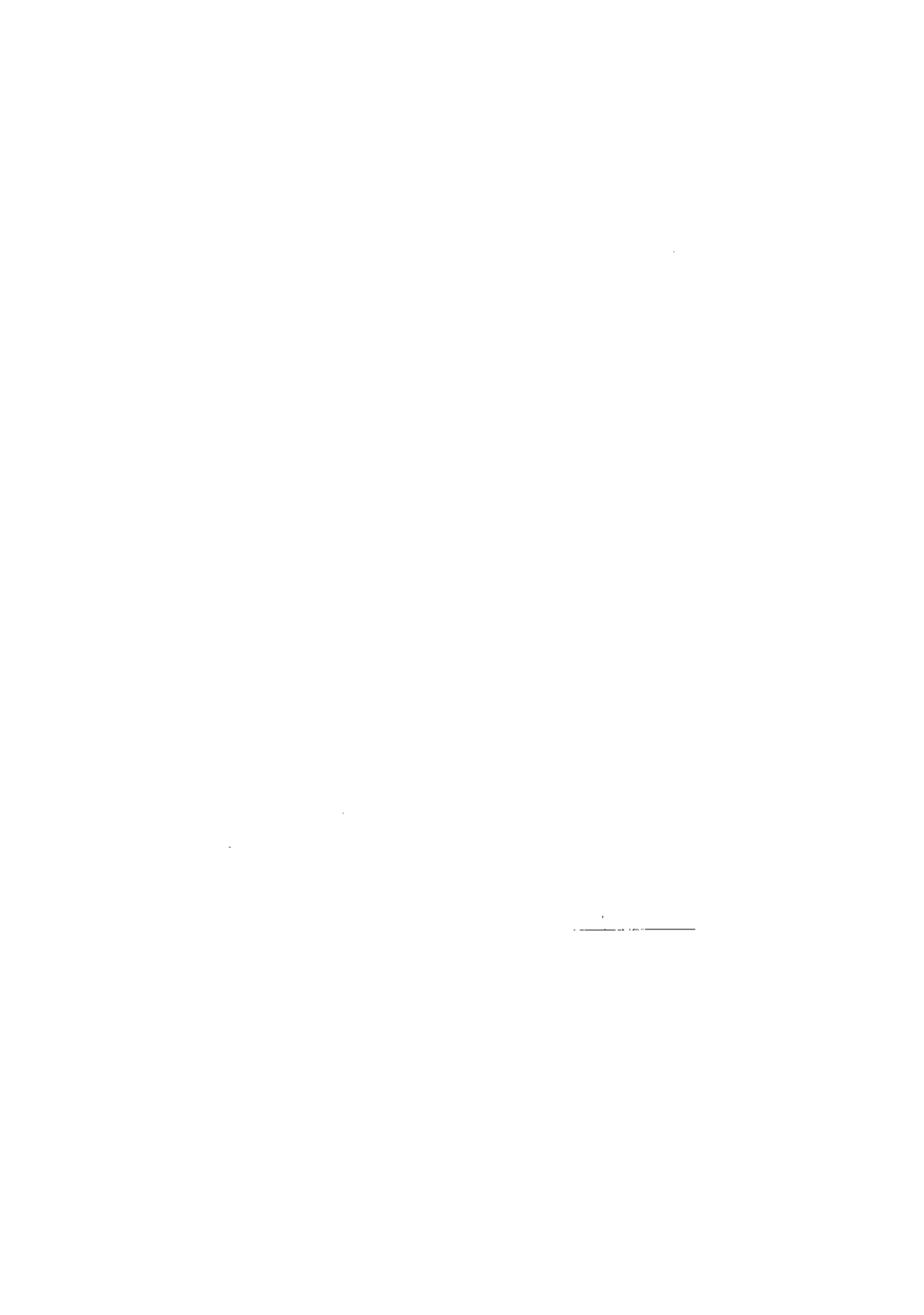
وهناك..

عند نفس الأطلال والحجر، غمست الحرير الملوث في مياه الفُرات..

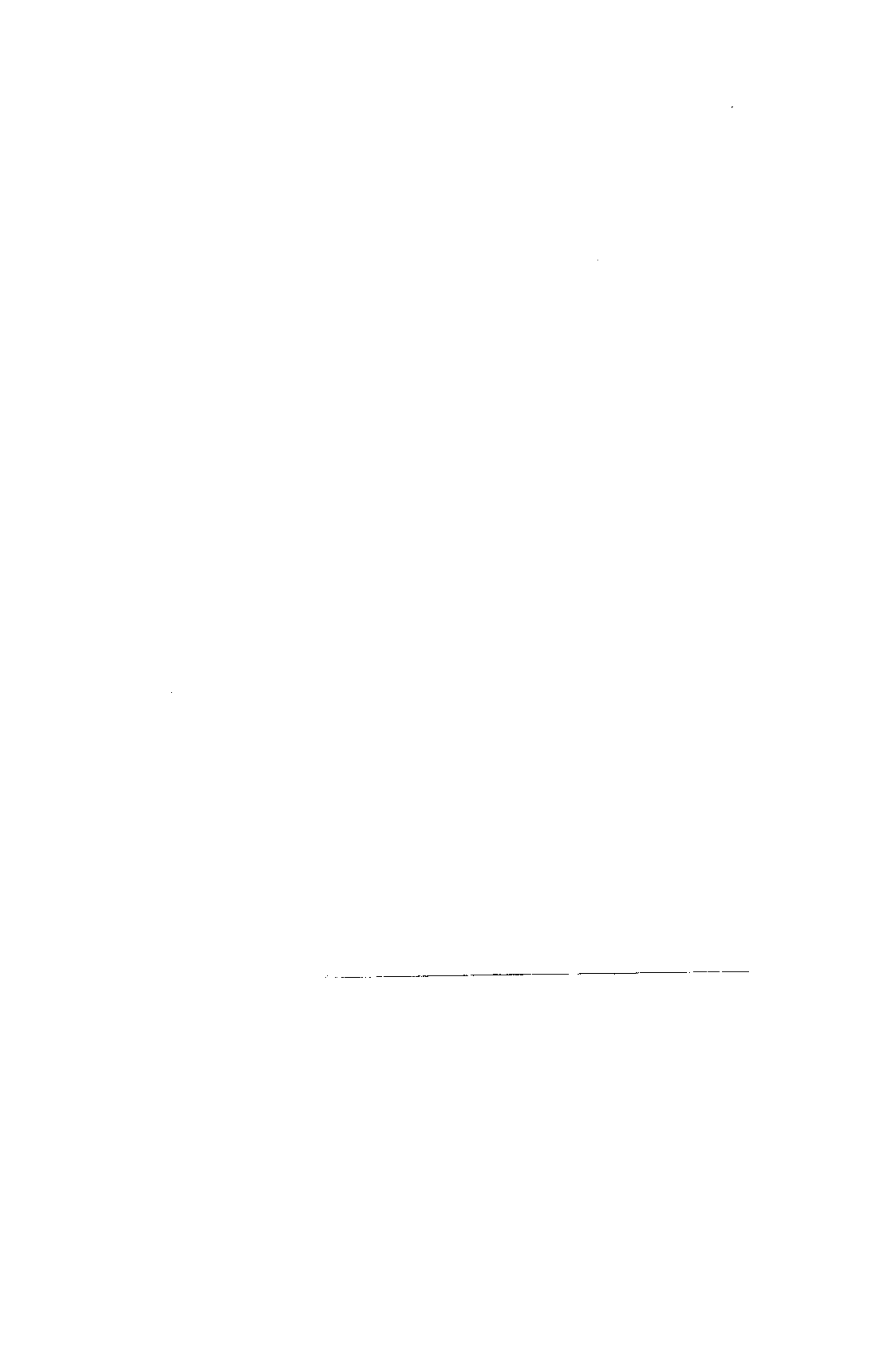
في كل صباح كانت تنشره في عين الشمس لتنظر، فترى آثار البقعة جلياً فتعود لغمسه بالمياه الأزلية..

فيوماً ما تختفي بقعة الزيت تلك الدخيلة وتعود شيلان الحرير ناصعة نقية.

"." "."



أهواك بلا أمل



لململتُ أوراقي مسرعة، وقد أصبحتْ نبضات قلبي سوطاً معذباً يدفعني للخارج ككل مساء !

في الموعد نفسه من كل يوم أمقتك يا هذا المكان رغم شوقي لك كل صباح !!

أعشق أرجاءك وتفاصيلك وهي تحتويه بابتسامته الحانية، والآن أكره النظر حتى لنفسي وحيدة بين جنباتك من دونه. أتوق إليك وأنفر منك .. تجتذبني وتدفعني للفرار، فليس لك سحر من دونه ولا رونق بلاه.

انحنيت أسحب حقيبة أوراقي من أسفل نافذتي المطلة على (ماسبيرو) لأدسّ ما أعيه فيها، ولكن مع التفاتتي نحو النافذة عرفت أني تأخرت !!

اللعنة عليّ ..

في كل يوم أقرر أنني لن أتركه لذكرى الحزن أبداً، لكن يبدو أن براثن الحزن أقوى مني ومن أملي، في كل يوم يبدو

وكأن السعادة عادت لحياته، وأننا نحيا أخيراً لهوانا، وفي النهاية يعود لحالة حزن لا أدري كنهها!

ها هو ذا أمام النهر يناجيه..

ترى، أيبثه حبه لي أم ألمه من فراقها؟!.

أم تأنيب ضميره المزمن !!

كثيراً ما أشعر أنني وهي بداخله ممتزجتان، أعلم أنني وهي إن تشابهنا فقد نتشابه في اقترابنا من فؤاده ليس أكثر. لكنه لا يهواني لأنني مثيلتها، أو عوضه عنها.

أعرف كل هذا ولكن...

انبعث صوتها الشجي يدمع عيني ..

".أهوااااك .. أهواك بلا أمل "

آآآه يا حبيبي.. بداخلك خوف، تحاول طرده من قلبك، ولكنه لا يزال له ذكريات في ركن معتم من فؤادك الذي أسرني بعشقه، ألا تزال تخاف مني؟.. من قربي!

في البداية كان خوفاً، لكن هذا الخوف انتفى وجذبتني لعشقك!

نعم، في بضع ساعات جعلتني أهواك، ولكنك ما زلت تقسو على قلبي الضعيف..

لا زلت تحمّلني وطأة عذاب مررتَ به من قبلي، تطالبني أن أعطي.. وأعطي.. وأعطي.. كي يطمئن قلبك من جديد!!، في نفس الوقت الذي يتملكك الشعور بالذنب لأنك طالبتها قبلي بمثل كل هذا العطاء، ولا زلت تتألم حتى الآن من جرحك لها.

ألا زلت تخاف لأني أحبك؟!

أعرف ذلك.. تخاف، تخاف عليّ ومنّي.. تخاف عليّ من نفسك، ومن وطأة ألامك، وتخاف مني أن أسبب جرحا جديداً في صميم فؤادك، وأنا لا أملك سوى صدقي في شعوري بك، وتصديقي لحبك، رغم كل شيء!

أنا أريدك أنت، وأموت لألمك مرتين؛ مرة لألمك، ومرة لأنك لا زلت تتألم ....

لم يا ترى لا زلت تتألم؟!

ألا زال في هواك نصيب لها!..

أهذا هو السبب في ألمك وعذابك و.. ألمي؟!

لمتَ نفسك طويلاً لأنك كنت تفضل الأخذ دون العطاء، وبكيت بين يدي ندماً.. وأخبرتني أنك الآن لي. أراك الآن وقد

فقدتُ قدرة قدميّ على الوقوف حتى، فجالستك وأنت على النيل، وأنا هناك في نافذة مكتبنا المشترك المطل على النهر...

ترى، بماذا يخبرك قلبك الآن؛ عني أم عنها؟..

عن حبي — الذي أضحى معجزة في حد ذاته — أم عن ألمك بعدها، أم آلام ذنبك بين كلتينا!!

"وردة يا بيه إلهي يخليك..."

رأيتها تقترب منه، تلك الطفلة البريئة، تبيعه من ورداتها الحمراوات وهي تتمتم بكلماتها التي أصبحتُ ماهرة في لملمتها من فوق شفاهها، وتوقفْ أمامها بنظراته شارداً. في كل مساء يشرد أمام صاحبة الورود الطفلة، وتلح ككل مساء:

- "يا بيه، أجبر بخاطري..".
- " ويعني هاديها لمين؟".
- "لحبيبتك..".
- "حبيبتي ؟!"

يتركني وإياها نتابع خطواته كأنما يبحث بداخله عمن يمنحها وردته.. ولا يبدو لي أنه عثر عليها! جعلتني تلك اللحظات أذكر أول ما أدناني منه. كنت أعرفه منذ زمن طويل دون أن أقترب منه، حتى عرفته حقاً وعرفت لحبه سبيلاً في قلبي، واليوم ...

كان صباحاً شتوياً دافئاً، جلستُ لأستمتع فيه بشاي ساخن بعبق النعناع المنعش وأنا أراجع برنامجي اليومي. كنت كمعدة - حديثة التعين - بقنوات النيل المتخصصة حريصة بشدة على التميز، وكان هو مفتاحنا جميعاً للتميز، والحق يقال.

كان أحضرنا ذهناً، وأكثرنا موهبة... لا يبخل على أي منّا بأفكاره المجنونة التي جعلت في زمن قياسي للمحطة رونقاً خاصاً، هذا لأنه هو ذو رونق خاص.

نحّيتُ أوراقي جانباً و ....

" أهواااااك .. أهواك .. أهواك بلا أمل ..

وعيونك، وعيونك تبسم لي .."

انبعث صوت فيروز وأنا أمنّي نفسي بيوم بهيج جديد معه، أعمل إلى جواره..

نتشارك في الكثير، وأحاول تناسي ما قد يختتم به اليوم وعاقبته من سهدي ليلاً قلقة عليه من نفسه، وعودتي كل صباح إلى هنا أبحث عنه فأجده، ولا أجده !

وأسبلت جفني وأنا أحرك شاي النعناع بين شفاهي وفيروز تترنم بـــ "أهواك بلا أمل"

آآآآه ..

لستُ مستوعبة لما يحدث لي!

في ساعات قلائل انغمستْ في أعماق قلبي ريشةُ فنان اصطبغت بلون وردي فرسمت حولي الكون ضياء، لا أدري متى أو كيف؟! لكننا أصبحنا في أيام عاشقيْن!!

تنهدت في سعادة فشعرت بعبق عطر ينبعث من حولي حتى شعرت بالملمس المخملي المعتاد فوق وجنتي، فابتسمت أنظر له واقفاً أمامي بوردته الحمراء ككل صباح.

يبتسم .. وأفعل!

تضمني عيناه، وأستسلم في خجل..

يهمس:

- "صباح الورد يا حبيبتي"

أضمه في وردته الحمراء هامسة:

- "ورداتك بس يا حبيبي"

وأتبعت فيروز:

"وورودك تغريني ..

بشهيّات القُبَلِ"

يضحك من خجلي، ويترك عيني تهرب من عينيه إلى أوراقِ العمل.

في الصباح حبيبي وردتك لي تبدو كأنها تنفست عبير أنفاسك، فصار شذاها أروع وأعطر، وفي مسائك وردة أيضاً تصاحب خطواتك في ساعات السحر المجهولة. آه منك حبيبي ومن ورداتك!

"."."."

انتهينا من قهوتنا معاً بعد عصر اليوم، وعيوننا عبر مكتبينا تحكي ما يعتمل في الصدور.

تضرعتُ إلى الله في كل صلاة أن يبقي نظراته تلك أملاً وحباً، ولا يتسلل إليها أسى أو حزن، أما عني فدائماً

نظراتي تحمل هواي، ونبضات قلبي ترسم فوق خطوط وجهي كل ما يجول في غُرَفه المغلقة.

نظرتُ للنافذة لأرى الشمس ترحل وتستقدم القلق اليومي لقلبي، يا الله، لم أعد أتحمل ذلك التساؤل المرعب كل يوم! هو اليوم لمن؟! .. لي أم للندم والحزن!! ...

نظرتُ له جالساً أمامي ينظر لي حيناً ويشرد حيناً آخر، أكاد من نظراته أعلم فيم يشرد؟.

حتى الآن أنا معه في شروده — أو لعل هذه أمنياتي، بعد قليل سيذهب لفعل أي شيء، ويسبقني إلى صديقه الأثير

النهر. يسبقني نحو النهر ليأخذه مني إلى الذكرى أو الألم، وأنا لم أعد أدري ماذا أفعل لأبقيه لي دوماً. أشعر أنني يجب علي أن أحتوي قلبه وكيانه حتى لا يتسلل إليه ألم ثانية، وإن ابتعدت لحظة لأي سبب يتهمني ـــ ولو بالنظرات ـــ أني أضيّعه.

صرت أسير فوق حبل مشدود، أخشى في كل خطوة من المجهول، أخشى أن أخطو بشكل ما فينقطع الحبل الواصل بيني وبينه.. وبينه وبين الحياة للأبد!

- "أنا تعبت!".

صرختُ بها على غير وعي، فنظر إليّ مندهشاً، وسأل في لهفة:

- "ما لك يا حبيبتي.. سلامتك؟!".

- "تعبت!".

يقترب مني في لهف صادق.. أنظر في عينيه لأراني، فأراني حقاً..

ما عليّ إذن من وهم مضى، أو ذكرى آفلة!

ربما لو لم يسرقه مني الشجن بين لحظات وأخرى، كنت استرحت لهدأة قلبي بجانبه.

نظرتُ له في استكانة، أردت الحديث..

أردتُ أن أخبره، "كُن لي وحدي"..

أردت .. وأردت .. وأردت

ولكن ..

ربَّت على يدي في حنو وانسحب من أمامي ككل مساء، تاركاً وردته ناعسة على حافة مكتبي كما هي منذ الصباح، وإن استمالت وريقاتها في صمت!

" أهواك ولي قلب... بغرامك يلتهب

تدنيه فيقترب... تقصيه فيغترب

في الظلمة يكتئب... ويهدهده التعب

فيذوب وينسكب... كالدمع من المقل"

". "." ".

ناحت جارة القمر على حالي فيما يبدو..

"فيسائلني البدر: يا حلوة ما الخبر؟

فأجيبه والقلب، قد تيمه الحب

يا بدر أنا السبب،.. أحببت بلا أمل"

أراك حبيبي الآن حاملاً وردتك الحمراء ذاهباً، اذهب إن أردت، ولكن..

كُن فَرِحاً بحق قلبي لديك .. دع فؤادك يهدأ للحظات..

أخرجني وإياها والذكرى والألم منه، ودع ذلك الحبيب النابض بصدرك يستريح.

لم أستطع متابعة خطواتك راحلاً ككل مرة، أعترف أخيراً أنه لا أمل .

سيظل الشحن آسرك للنهاية، يأخذك مني - ومن عمرك - ويعيدك وقتما يرغب.

فازت وردة مسائك على وردتي الصباحية، فها أنت تمحر عبيرها للأخرى، وتقضي معها ساعات من الوحدة الاختيارية.

للمتُ ما تبقى مني ومن أوراقي، لكنه أبقاني !!

صوته هامساً باسمي ..

وقفته أمامي بوردته المسائية ليقول:

- "قالت لي اديها لحبيبتك".

حبيبي..

أهواك.. بكل أمل.

"."."."

بلا وداع



عربات المترو ترتج بها تماماً كارتجاج فؤادها بين ضلوعها، يكاد ينخلع منفصلاً عنها كما تكاد تنفصل تلك الحلقة المعدنية، فهي تتوسط السلسلة في الطرف الأيمن للممر الواصل بين عربتي المترو- التي تستقلها والتي تليها غير واعية لخطورة ما ترى.

ظلت شاردة تداري عنها عبراتها الحبيسة انفصام تلك الحلقة في بطء مخيف سوف تنحل معه تماماً في النهاية، وتنفصل عربتها عن العربة الأخرى المتصلة بمقدمة المترو.. وتتوقف عربتها لحظتها بشكل مفاجئ..هذا مؤكد...

قريب الحدوث بالفعل جداً!..و... دق هاتفها المحمول.. ليس هو المتصل، هذا ما وعته من الاسم المضيء على الشاشة.. حقاً يملأ قلبها ضياؤه لكنه لا يفعل بهاتفها. لا تعي أنها أمها تتصل لتطمئن على وصولها من الإسكندرية بعد تلك الفترة التي قضتها هناك هاربة حتى من نفسها. لم تكن خلال تلك الفترة السالفة قادرة على مواجهة الحياة بدونه- صحيح أنهما اتفقا على أن يعودا صديقين من جديد بعدما سلبتهم الحياة كل السبل عدا ذلك- إلا أنها تتألم حقاً. ظنت

بعد ليالي الإسكندرية الساحرة أنها تستطيع التعامل مع حياتها كما كانت..كادت تقسم على ذلك أثناء عودتها في قطار الظهيرة إلى القاهرة، لكن ما أن وطأت قدميها أرض العاصمة حتى ترقرقت دمعاتها حاملة صور لقائهما حين كانا يتحينا الفرص الضئيلة لذلك، خاصة هنا.. عند محطة المترو. لم تقاوم فكرة العودة لضاحيتها بالمترو، وجلست تتصل به بعد أن شعرت بحنينها لصوته يعلو أخيراً من محبسه خلال أيام الإسكندرية. اشتاقت لصوته حنوناً ضاحكاً، لم يفعلها ويتصل بها طوال الليالي السابقة.. هو يريد بهذا معاونتها على المقاومة، فكلاهما يحمل للآخر حباً لا يعلمه سوى الله.. وفقدانه سقم شفائه بيد الله.

اتصلت به وتمنت ألا يحادثها كما يجيب حالياً بشكل فاتر ورسمي، لكنه فعل!

ورغم وعودهما ألا يعودا لنبش الجرح،ورغم أن ذكر هواهما الفقيد يمزقهما ويذبحهما عجزهما مع الكلمات أكثر فأكثر- ولذا كانت الوعود- لكنها رغم كل هذا وجدت نفسها تقول من بين عبراتها:

- لم؟

- لم ماذا؟

- لم تقسو، ألا تكفي قسوة أيامنا؟

وظل سؤالها بلا جواب بعد أن هربت الشبكة تماماً من الهاتف.

ازدادت عبراتها وازداد انفصام الحلقة المعدنية أكثر وهي ناظرة إليها بغير وعي.

تعرف ألمه الآن، يتألم لأنه يقسو عليها.. هي تعلم ذلك لكنه الرجل، أقدر على كبح الأمور بعقلانية!!

تفارق الحلقة أخيراً مكانها ببطء...

تبدأ في إصدار أصوات مزعجة انطلقت معها صرخات الركاب الفزعة...

شعرت أنها تفارق حياتها بفراقه...

تفترق الحلقة عن توأمها المعدني بعويل عالٍ...

يدق هاتفها.. إنه هو أخيراً....

أرادت أن تجيب، وامتدت يدها للهاتف فعلاً.... لكن....

تحطمت الحلقة بصوت مرعب وانفصلت العربة بعنف..

تفرقت العربتان... فات الأوان..

وسقطت عن هاتفها و......

افترقت عنه بلا وداع.

" " " "

ليلة شتاء



ليلة شتوية باردة قضاها مسهداً في فراشه، متدثراً بأثقل الأغطية. طوال الليل ظل يبحث في رأسه عن الكلمات، يشعر برغبة في كتابة شيء عن الليالي الباردة، يتردد المعنى في قلبه، ويؤثر في وجدانه، لكنه لا يعرف ماذا يكتب. حاول كثيراً دون جدوى. ويبدو أن الإرهاق قد أثر فيه بشدة، فبدت كلمات غير ذات معنى تتراص أمام عينيه، ثم تهرب بلا فائدة.

استسلم أخيراً وهو ينحّي أوراقه جانباً كي يحاول النوم.

ومرّ عليه ذلك الوسواس، وهمس لنفسه:

- "لا أعتقد بأن مثلك سينهض لصلاة الفجر".

الله أكبر ... الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله..أشهد أن محمداً رسول الله

فتح عينيه مستفيقاً على صوت النداء كأنما نام ساعات طويلة، ولكن لدهشته اكتشف أنه لم يغفُ سوى نصف ساعة.

تقلّب قليلاً وهو لا يشعر بالوسواس الذي تحفز له متابعاً حركاته متسائلاً:

- "سينهض !! .. إنه لم يفعلها منذ زمن!".

وشاهده يتمتم ببضع كلمات مبتسماً، وهو يسحب ورقة صغيرة يسطر فيها ...

"ليلة شتاء والبرد جَدّ الجَدّ

لا يعرف غني ولا فقير ولا فيه شفاعة لحدّ

لا لحاف نافع ولا بطانية تحوش البردْ ....

صحيت من نومي وقلت يا نفس قومي

ده الفجر "شأشأ"من غير ما تعتبي وتلومي

طهري جسمك واخلعي توب الكسل واتوضي

ولمسجد ربنا جدّي واشتدّي .." *

وضع الورقة جانباً، وبدا عليه أنه غارق في التفكير. ثم نهض ليتوضأ، فامتعض الوسواس لفعله، لكنه لم يقوَ على فعل شيء، وهو يستمع لاستغفارات الشاب وتسبيحه.

عاد الشاب ليرتدي ملابسه الثقيلة، علّه يتقي البرد القارص الذي ينخر العظام، وكتب ...

"وقُمت واتوضيتْ ولِندَا ربنا هَمِّيتْ

ولبست كُلَ تقيلْ على جسمي ما خَلّيتْ

قبل ما تفوتْ الصلاة وأقول يا ريتني يا ريتْ .."*

وخرج متجهاً للمسجد، ولسانه تارة يسبح، وأخرى يتمتم بكلمات يسطرها في ورقاته الصغيرة التي لا تفارق جيبه. وفجأة، تناسى كلماته للحظات..رأى شبح رجل قد تعثر وسقط، فجرى نحوه يساعده، وإذا به شيخاً مسناً لا يرتدي سوى ثوب رقيق، يكاد يذوب فوق جسده مع لسعات البرد. مد يده ليساعده، فاعتمد على ذراع الشاب لينهض وهو يشكره بوجه بشوش.

ازداد امتعاض إبليس هامساً لنفسه:

- "ويكتسب حسنات أيضاً؟!".

ظل الشاب يتطلع للشيخ في إشفاق وقلق، خشية أن يسقط ثانيةً مع خطواته الثقيلة تلك. ولدهشته وجد الشيخ يسبقه إلى المسجد، وقد تحولت خطواته الواهنة إلى خطوات أكثر ثباتاً واتزاناً، ولسانه يقطر تسبيحاً دافئاً يطغى على هجمة الصقيع. فعاد الشاب يسرع الخطى للمسجد وكتب في ورقته:

"كان كل شيء حواليّة هادي ومندي..

ولسان حالي بيقول يا نسمة باردة خِفّي واهْدّي..

ولمحتْ شخص من بعيد على الطريق بيعدّي..

اتكعبلتْ رجليه لا قادر يقوم ولا يعدّي..

جريت عليه أعينه وأمد له يدّي..

لقيته راجل كبير في سن أبويا أو جدي..
على جسمه تُوب فاضل له حبة ويدوب..
وقال لي ساعدني يا ابني ألحق لُقَا المحبوب..
ومشيت وراه وأنا مش قادر أدارى دهشتي..
ولقيته ماشي في نفس سكتي..
وعند الجامع، سبقت خطوته خطوتي..
اهتزيت من جوة مهجتي..
ودخلت وراه وأنا، بداري كسفتي..
إن كان ده حاله وسبقت خطوته خطوتي !!"*

اقترب الوسواس حذراً من الشيخ محاولاً بث سمومه في قلبه، لكنه ولّى هارباً قبل أن يفعل، بعد أن سمعه يلهج بذكر الله، ويتلو آياته الكريمة بعيون دامعة وقلب خاشع.

تطلع (إبليس) إلى مئذنة المسجد يعلوها الهلال ونداء الإقامة يسري في الكون الصامت إلا من تسبيح الخالق، فأدبر في حسرة.

وفي المسجد ...أتم الشاب فريضته وهو يصلي قرب الشيخ ، ورآه بعد لحظات ينهض ليغادر، فأسرع إليه ليعاونه، فابتسم له قائلاً :

- "حفظكَ الله يا ولدي" ...

وخرجا معاً من المسجد.

فسأله الشاب مشفقاً:

- "لِمَ لم تكتفِ بأداء الفريضة في بيتك يا أبتِ؟!.. قد يمرضك مثل ذلك الطقس".

ابتسم الشيخ مجيباً:

- "إنه هو الحافظ المعين يا ولدي".

لم يتركه الشاب حتى أعاده لمنزله، وسار في خطوات متئدة وهو يشعر بالخزي من نفسه بعد أن قارن حاله بحالِ هذا الشيخ، وفعله بما يفعل، وبقلب وَجِل ودموع لم يقاومها هتف:

- "يا الله ..".

"القلب غفلان والجسم كسلان..

وقال إيه مِ الشتا مرعوش وبردان..

صليتْ وبكيتْ ولرب العباد حَنّيتْ..

وقلت يا رب ياريتني ما كنت..

ولا جيت

إزاي قصّرت .. إزاى كَلّيت!

وازاى قسى قلبي .. وازاي مَلّيت!

اغفر لي يا رب وسامحني..

وبرضاك عني املا القلب وريّحني".*

---

*القصيدة بعنوان "ليلة شتاء" لأبي– رحمه الله.

المشربية



شعرت برجفة باردة حين امتدت يده نحوها، واندهشت من رجفتها أكثر من إندهاشها لجرأته في أن يمسها بهذا الشكل وفي مكان عام!.. فلا معنى لحواجز الأنثى الشرقية بينهما وهي التي قدمت له نفسها مراراً كما لو كانت إمرأته ولكن... عبر برامج المحادثات الالكترونية فقط!

هي تعلم قدرها لديه جيداً ولا تشك في ذلك للحظة ولكنه رجل، ونفس ثقتها هذه في مدى قربها منها يجعل من الطبيعي أن يشعر بها كأنثى وليس فقط كروح مقربة له.

إنكسار العادات والتقاليد بينهما بمرور الوقت لم يدع مجالاً سوى لحاجز وحيد بينهما، إنهار عبر الخيال منذ زمن ليس ببعيد، حاجز الجسد ورغباته...

كيف لها إذن تندهش من رغبته في اختبار الخيال في الحقيقة؟!

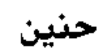
أحقاً لم تظن أنه سيفعل؟!

نظرت له وهو يبتعد معتذراً حين شعر برجفتها..

شردت في عينيه بعيداً عنه..

ودمعت عيناها حين رأت صورتها في عينيه كفتاة "بالحبرة" و "اليشمك" تطل من خلف المشربية!

"."."."


حنين



جلستْ تغالب دموعها، لم تعد تقوى على ذرف المزيد، ولكن العبرات انهمرت كزخات المطر دون إرادة منها.

تشعر بنفسها خابية منهكة، تحملق في جدران حجرتها، ولا تريد الحراك!

وجودها هنا بات يجلدها بمرارة ذكرى العزيزة القريبة لقلبها؛ شقيقتها الوحيدة، لكنها رغم ذلك لا تستطيع أن تفارق تلك الحجرة التي هي كل ما تبقي لها منها.

كل شئ هنا كان لاثنتين... هي و(حنين).

فراشاهما ... دولاب ملابسهما ذو الجانبين....

(الكومودينو) الكبير بين الفراشين الذي أصرَّت أن تضعه والدتهما لتتشاركا فيه، لم ترغب أبداً في استقلال كل منهما عن الأخرى، حتى ملابسهما..

كانت هي كثيراً ما ترتدي ملابس (حنين) دون علمها، فتثور ثورة طفولية، وتركض خلفها في كل أنحاء المنزل.

تتعالى أصداء الضحكات الآن في ذاكرتها وهي تجري من أمام (حنين)، وتقول من بين ضحكها:

- "آخر مرة يا (نينا)، أعدك أن تكون آخر مرة..

ها ها ها ها".

فترد (حنين) وهي تجذبها من ملابسها:

- "كل مرة، هي آخر مرة... أليس كذلك!!! تعالي إلى هنا.. تعالي لي لي لي لي لي".

أصبحت الأصداء كضربات السياط.

- "آه يا الله، كيف يمكنني الاحتمال! آه يا (حنين)".

قالتها و انخرطت في البكاء بحرارة وهي تخفي وجهها بكفيها:

- "لم تعودي أنت هنا الآن، لقد رحلت وتركتني وحيدة..

آه آه آه آه".

"."."."

لم تدر كم من الوقت مر عليها وهي ممددة على فراش (حنين) تحتضن وسادتها التي أغرقتها بدموعها، لكنها عندما رفعت رأسها، أحست بظلال المساء تزيد الجو كآبة حولها.

اعتدلت قليلاً دون أن تتخلى عن الوسادة، وتطلعت لصورة (حنين) التي فوق (الكومودينو)، ثم ضمتها لحظة وقبّلتها، وتمتمت من بين دموعها:

- "أول ليلة أبيت في الحجرة من دونك يا (نينا)".

وضعت من يدها الوسادة كأنما توسد (حنين) نفسها الفراش..

وقامت تصلي ....

بكت بين يدي الله كما لم تبك من قبل، بكت وبكت، حتى أفرغت دموعها ما بين ركعات وسجدات، وجلست تضم كتاب الله لقلبها؛ تلتمس في آياته السلوى، ورنت بناظرها للسماء هامسة:

- "أسألك العون يا الله...".

اتجهت ثانيةً نحو فراش (حنين)، فسمعت صوتها يأتي من ذاكرتها بضحكة واهنة:

- "تعالي هنا يا (مروة)... نامي إلى جواري ي ي ي ..".

أغمضت عينيها على صوت (حنين) بعد أن عادت دموعها للتريف، وذاكرتها تفرض عليها الماضي أكثر وأكثر، الماضي القريب...

القريب بشكل مؤلم ....

"."."."

الماضي تراءى أمامها كله في لحظات، كانت كطعنات السهام. كل ذكرى ..كل كلمة ..كل نظرة رأتها في عيني (حنين) لم تنمح بعد من مخيلتها، وكيف وهي تحيا بداخلها، وتجري منها مجرى الدماء!

(حنين) لم تكن فقط شقيقتها الوحيدة، بل كانتا كتوأم، حتى باتت تشعر منها بكل شيء.

الفرح .. والحزن ... الشجن ... والشرود ... والحيرة .... حتى ...حتى الألم الذي عانته من مرضها الأخير كانت تحس به يدب في أوصالها هي. شعرت بسعادتها يوم خطبتها على (عمرو)، فأخيراً جمعها — هي والإنسان الوحيد الذي كنّت له كل الحب — ارتباط رسمي.

كان (عمرو) رفيق سنوات طفولتها وصباها، وحين جلس إلى جوارها، ووضع مع دبلة الخطبة في يدها قبلة حانية، جلست هي ترقبهما من بعيد... تعلم مقدار سعادة (حنين) في تلك اللحظة، فهي تهوى (عمرو) حقاً، وتعلم أنه يحبها.

لكن، ليس كما كانت تحبه (حنين) ..... أبداً.

"."."."

وتأكد لـــ (مروة) إحساسها هذا ...

فبعد قرابة العام من يوم الخطبة، بدأت تنتاب (عمرو) آلام فظيعة بالكلى، وبدأت حالة (حنين) بدورها تزداد سوءاً،

وعذبتها أكثر آلامها النفسية.كانت حساسة تذوب رقة، كانت في هشاشة البلور، حتى أنهم جميعاً – أهلها وأهل (عمرو) – خشوا عليها الانهيار.

جاءت نتائج التحاليل الطبية لتزيد الأمر سوءاً، فكل شيء يشير إلى ضرورة إجراء جراحة عاجلة لزرع الكلى، وانهارت (حنين). وبدأت دوامة الفحوص والتحاليل للبحث عن متبرع تتوافق أنسجته وفصيلة دمه مع حالة (عمرو)، دون جدوى. وهنا أفاقت (حنين) وتقدمت – رغم الاعتراض – لإجراء الفحوص .

كانت النتيجة أنها الوحيدة ـــ من دونهم جميعاً ـــ التي تصلح، وعلى الرغم من اعتراض أهلها، فإنها أصرت على إجراء الجراحة. وتذكرت (مروة) ما قالته لها قبل دخولها إلى غرفة العمليات:

– "(مروة) يا عزيزتي، للحب حقوق على قلوبنا، أيكون بيدي محو الألم عنه ولا أفعل..كيف ؟!".

وفعلت...

"."."

نجحت الجراحة، واسترد (عمرو) صحته. وكانت (حنين) أسعدهم بذلك، رغم آلام النقاهة التي كانت تشعر بها. وبعد فترة بدأت هي الأخرى تتحسن.

كانت (مروة) ترى، قمة السعادة في عيون (حنين) حين يأتي (عمرو) لزيارتها، وتشعر به سليماً معافى.

تذكرها جيداً، حين كانت تهمس لها وتشير لـ(عمرو) من شرفة المنزل مودعة:

– "أتعلمين يا (مروة) ... إنني أحمد الله في كل لحظة على أنه أعطاني القدرة على إنقاذ حياته، فالله أعلم كيف كانت ستصبح حياتي من دونه".

لكنها كانت قلقة عليها، فصحيح أنها تحسنت، لكنها لم تعد كالسابق، وحتى هي لم تلاحظ ذلك في نفسها... لم تلاحظ مدى شحوبها وانخفاض وزنها، كل اهتمامها كان منصباً على الاهتمام بـ(عمرو) وصحته، حتى إنها لم تلاحظ تغير (عمرو) نفسه!

هكذا شعرت (مروة)، حينما أخذت زيارات (عمرو) لهم تقل تدريجياً. والغريب أن (حنين) لم تلاحظ..

بل لاحظت، لكنها لم تغضب، أو تُحمّل الأمر معنى سوى أن (عمرو) ربما ما يزال مرهقاً، ولذلك أصبحت زياراته قليلة. وأصبحت تطمئن عليه من خلال التليفون .. ولا تذكر (مروة) أنه حتى بادر يوماً بالاتصال بها!

"."."

بمرور الأيام شعرت (حنين) بتبدل حال خطيبها، وتأكدت أنه من غير المعقول أن يكون كل ذلك بسبب الجراحة التي أجراها، لكنها ظلت حائرة، لا تدري ماذا أصابه؟ ولا ماذا تفعل؟!! ..

تذكرت (مروة)....

تلك الليلة التي استيقظتْ فيها على صوت أنات (حنين)، في البداية اعتقدت بأنها تحلم، أو أنها اختلط عليها الأمر، وأن (حنين) تبكي لا تتألم ..

ربما بسبب بُعد (عمرو) عنها، وعزة نفسها التي منعتها من لومه بعد كل ما فعلته له..

فلماذا تتألم !!! ...

لقد شفيت، فماذا بها؟.....

اتجهت نحوها، فوجدتها تقبض على الوسادة بأناملها في ألم وهي تدفن بها وجهها....

ضمتها لصدرها جزعة، وهي تسألها:

- "(نينا) !!! .... ماذا بك ؟..".

اكتشفت لحظتها حرارتها المرتفعة بشدة، والعرق الغزير الذي يتصبب منها...

تطلعت إليها حينها وهي تتأوه بصوت مسموع:

- "أشعر بألم فظيع .... لا أدري ماذا حل بي!! .... آآآآآآه...".

- "حبيبتي، ماذا حدث؟ ... ما بكِ؟ أخبريني!!".

- "آلام فظيعة في جانبي ... آآآآآآآآآآه ...".

..في تلك الليلة نقلت (حنين) إلى المستشفى ....

وبدأت دوامة جديدة .....

فحوصات ... وأشعات ... وتحاليل و .... و ....

"."."."

بعد يومين قضتهما (مروة) ساهرةً إلى جوار (حنين)، بينما كانت هي غائبة عن وعيها، بدأت تلك العقاقير والمحاليل تحدث أثراً في جسد (حنين) الواهن، وبدأت تفيق.

كانت (مروة) أسعدهم بذلك، كما كانت أكثرهم خشية لسؤال (حنين) الذي حتماً سيكون أول ما تنطق به:

- "ألم يأتِ (عمرو)؟! ...".

ابتسمت لها ابتسامة مترددة، وربتت على وجنتها في حنان.. ماذا ستقول لها!! ..

أستخبرها بما حدث الآن وهي في هذه الحالة؟! ...

لا، ليس الآن..

- "إنه ليس في القاهرة يا حبيبتي، وإلا كان جاء إليك بالطبع.. لقد سافر قبل مرضك بيوم واحد، وهو دائما يتصل ليطمئن عليك تليفونياً".

بدا على ملامحها ساعتها أنها لا تصدقها، لكنها صمتت.

فرح والداها يومها بإفاقتها، وجلسا معها طوال اليوم.. لكنها لم تكن تشعر بأحد. كانت شاردة في ذلك الذي منحته كل حبها، بل كانت لتمنحه حياتها... لكنه......

"."."

في ذلك اليوم، كان من المفترض أن يطلعهم الطبيب على نتيجة التحاليل، وكانت (مروة) في شدة القلق... ليس فقط من نتيجة التحاليل، ولكن من حالة السكون والصمت التي انتابت (حنين)... فهي تعلم أنها لا تصدقها، ولكنها لا تملك الجرأة على الاعتراف بذلك...

أخذت تضاحكها وتتحدث في كذا وكذا.. ولم تنطق (حنين) إلا لتهمس:

- "ما بال أبي وأمي قلقين إلى هذا الحد؟!!.."

نظرت لها وقد فرحت بحديثها وأجابتها مبتسمة:

- "ألا تعرفين كم أنت غالية لدينا وعزيزة على قلوبنا؟...".

أتى أبواها ومعهما الطبيب ليطمئن عليها... وانتظرت (مروة)

وقد ارتفع قلقها لذروته ....

"."."."

يا لمرارة الذكرى القريبة، وشدة مرارتها في قربها. في ذلك اليوم علموا جميعاً ما حلّ بـ (حنين)... كلهم تألموا.. تعذبوا... ونزفوا دموعاً..

إلا هي...

جلست تنظر لأختها التي لم يبدُ عليها التأثر بما عرفت، بل إنها اكتشفت ساعتها أن (حنين) لم يهمها خبر مرضها قدر اهتمامها وانشغالها بما فعل خطيبها. قال الطبيب يومها إن جسد (حنين) لم يتحمل آثار الجراحة التي أجرتها، وإنها ساعدت في انتشار ورم.. أكدت التحاليل التي أجرتها أنه ليس بالورم الحميد!!.مضت فترة قضتها (حنين) بالمستشفى حتى تعافت قليلاً، وأصبح بقاؤها في فراش المرض غير ذي معنى..

فطلبت العودة لمنزلها، ووافق الطبيب، شرط أن تحضر لجلسات العلاج الكيميائي.

عادت للمنزل .....

عادت لتضمها و(مروة) حجرتهما الصغيرة، وكادت (مروة) تصاب بالجنون، كلما نظرت لأختها الوحيدة التي لم

يفرقها عنها أي شيء، وتذكرت أنها قد تذهب هكذا، فجأة في أية لحظة، كلما ازدادت التصاقا بها.

في تلك الليلة تحدثت (حنين) أخيراً معها. أخذت تذرف آلامها، فلا يشعر بها سوى ساعات السحر و...

صدر شقيقتها التي باتت لا تفارقها لحظة. أخبرتها أنها علمت كل ما حدث مع (عمرو)، ومنه هو.

لم يمنعه حياء أن يخبرها بأسبابه الواهية للابتعاد عنها، وعلمت (مروة) أسبابه تلك من بين شفتي أختها..

يا الله!... كيف استطاعت تحمل كل هذا بصمت وصبر مع خبر مرضها؟!! ...

كيف؟ ...

لقد شعرت (مروة) أن ما فعله (عمرو) بأختها ربما كان أثره في نفسها أقوى من أثر مرضها نفسه...

قالت لها (حنين) تلك الليلة وهي ترقد إلى جوارها في الفراش:

- "يقول إن هناك مِنْ أصدقائه مَنْ أخبره عني ما يشينني !!... تصوري !!".

ضمّتها (مروة) لصدرها وأجابت:

- "لا يا حبيبتي، مَنْ يفعل فعله لا يعرف الحب... ما يقوله حجة ليتركك ليس أكثر، فلا يوجد أصدقاء قالوا، ولا يوجد

ما يشين. اعذريني لو كان حديثي قاسياً، لكنها الحقيقة. في البداية يبتعد تدريجياً، وبعد أن يعلم بمرضك يقول هذا!!! لم يجد حجة أقوى منها ليتركك وحيدة.. إنه يبحث عن مصلحته فقط، صدقيني. من البداية وأنا يحيرني أمره". بكت (حنين)...أخيراً بكت، بكت بين ذراعي (مروة). ومن ليلتها أصبحت تلك الحجرة عالمها الوحيد..

صباحاً تنهض — إن استطاعت — للصلاة، أو تؤديها خلف أختها وهي جالسة..

تجلس فيها طوال اليوم ... تفعل أي شيء ...

تقرأ ... أو تقوم بحياكة بعض المشغولات اليدوية لأختها...

كانت تخبرها أنها تريدها أن تضع تلك المشغولات ببيتها في المستقبل. وتبكي (مروة) حين تقول لها ذلك...

والغريب أنها كانت أقواهم جميعاً، كأن الله ألهمها الصبر وتحمُّل قضائه لأقصى درجات رحمته عز وجل.

في المساء كانتا تجلسان إما لمشاهدة التلفزيون، أو لسماع بعض الموسيقى الكلاسيكية التي كانت تفضلها (حنين)، لكنها كانت تود لو تجد عذراً واحداً لـــ (عمرو) فيما فعله.

كانت أحياناً تخبر (مروة):

- "ربما بالفعل هناك من أراد الإيقاع بيننا، ولذلك ابتعد ثم تركني في النهاية".

وكانت (مروة) تصمت مشفقةً على حالها...

"."."

كانت الساعة تشير لمنتصف الليل...

أدارت (مروة) مؤشر الراديو ليستقر عند إذاعة [نجوم FM] ..

وابتسمت لأختها حين لمحت ابتسامة على شفتيها وهي تستمع للإذاعي (أسامة منير) وهو يقدم افتتاحية برنامجه الشهير:

*** بكل الحب ، هانتكلم عن الحب ***

*** وبكل الحب، هاناقش كل قضايا الحب ***

حينها نظرت لها (حنين) وقالت:

- "(مروة)، أحضري التليفون لنحاول الاتصال به...".

أجابتها (مروة):

- "ألا تنتظرين معرفة موضوع الحلقة؟ ...".

هذه المرة أجابها (أسامة منير):

- "الحلقة النهاردة عن موضوع [رد الجميل]... يعني......".

سبقت مرارها كلماها:

- "أحضري التليفون".

وجلست (مروة) يومها تستمع إليها وهي تقص على (أسامة منير) قصتها...

وشعرت - مع سكون الليل وصمت الكون حولها - بما شعر به هو من ألم، وبما شعر به كل من استمع لكلمات أختها الصادقة والجريحة... أكثر ما آلمها من كلمات (حنين) جملتها الأخيرة لـ (أسامة منير):

- "عايزة أقول حاجة واحدة بس أخيرة يا (أسامة)...".

- "اتفضلي..".

- "عايزة أقول لـ (عمرو) إني لسة باحبه، وإني بادعيله ربنا يسامحه...".

" " " "

الذكريات أسواط من سموم تجلد فؤادها...

كلمات (حنين) .. صوتها.. بسماتها ..حتى آهاتها ..

صورة (حنين) الأخيرة وهي تسلم روحها لبارئها بين يديها هي، هي التي تمنت أن تفديها ولو بعمرها...

لكنه أمر العلي القدير.

أشارت الساعة لمنتصف الليل...وجلست تستمع لـ (أسامة منير) ...

*** قبل بداية الحلقة، فيه رسالة وعدت إني أوصلها من خلال البرنامج ....

طبعاً كلنا فاكرين (حنين) اللى اتصلت بينا الأسبوع اللى فات، وحكت لنا عن قصتها مع خطيبها اللى سابها في اللحظة اللي كانت محتاجة له فيها...

الحقيقة (حنين) ربنا رحمها من آلامها...

(حنين) توفاها الله في نفس الليلة اللي كانت فيها خطوبة (عمرو) على واحدة تانية.. وصلني اتصال من أختها بعد نهاية الحلقة السابقة مباشرةً، لكن للأسف، ما لحقناش نطلعها على الهوا معانا، كان وقت البرنامج انتهي...

قالت (مروة) أختها، إنها في نفس الليلة اللي كلمتنا فيها عرفت إنه يوم خطوبته، وحصل لها انهيار مفاجئ، وكانت آخر كلمة قالتها لأختها: [قولي لـــ (أسامة) يقول لـــ (عمرو) إني مش مسامحاه!..]. ***

---

* في إحدى حلقات برنامج * أنـــا والنجـــوم وهـــواك * لأســـامة منير،عرفت مأساة تلك الفتاة (حنين) التي حقاً قتلها الحب ....



البندول



بندول ضخم، يطرق أبواب الزمن بثوانيه المتوالية في رتابة وثبات بلا كلل... يظل يدق.. "تك ... تك ... تك"...

يغدو يمنة ويعود يسرة .. "تك ... تك ... تك" ..

نحاسه الصلب يجول بجوف الساعة الخشبية العتيقة، ويظل يدق بجانبيها، كأنما يطلب حرية من سجنه الأبدي هذا، لكنه يظل مع هذا يمضي في رحلته... "تك ... تك ... تك"...

العجيب أنه أضحى جزءاً من مسميات الحياة حولها.

ليست ساعته الأثرية، ذات الميناء العاجي، والتي لا تذكر إلى عهد أي خديوي تعود.. ولكن فقط البندول!

فلم تعد تميز وقتها من رقصات عقارب الساعة على حلبة الزمن وإنما من شكل بندولها، من انعكاس خيوط الشمس عليه، أو أضواء المساء... "تك ... تك ... تك" ....

منذ أن استيقظت وهي تجلس تتابعه، لا تدري لماذا ولكنها تفعل! ...

نهضت بعد الضحى بساعات، وتطلعت إلى البندول فزعة!...

هل أمسينا بعد؟!... حمداً لله لم نفعل.. لم إذن يبدو الكون ضبابياً هكذا؟!...

للمرة الأولى يخدعها البندول في حكي الوقت....

يبدو أن اليوم قاتم فقط لأنه اليوم. شعرت بحنان أنامله على بشرتها، واكتشفت أنها تغفو...

لم إذن ترى استدارة البندول أمام ناظريها وتشعر ببصرها يتابعه؟! .. "تك ... تك ... تك"....

يا الله ... متى ينتهي هذا الكابوس؟! ...

نعم، بالتأكيد هو كابوس، ومجرد أوهام.

هي لا زالت غافية ربما...

لم يحن يوم رحيله بعد.. لا، ليس بهذه السرعة، لكن ...

هل عاد حقاً ليرحل من جديد؟!...

هل شعرت بحنان قربه، ودفء وجوده بما يكفي لتحمُّل برودة الليالي وحيدة!

لا لم يحن يوم الرحيل، لم يحن. هي مؤكد لا تزال غافية، فها هي لمسته الحانية تعود لتؤكد لها أنها لم تزل في وهم النوم

الجميل.. بالتأكيد جميل ورائع... أي شيء من الروعة ما كان إذا كان هو هنا حقاً بجوارها ولن يرحل.

فتحت عينيها مبتسمة له، وواجهتها بسمته وهمسته لها:

- "نمتِ ؟!..".

وتقطر ابتسامتها بسعادة رؤيته:

- "الظاهر كدة يا حبيبي..".

يمس جبينها بشفتيه، فتغمض عينيها مرة أخرى وهي تطرب بلحن بندولها العزيز... "تك ... تك ... تك" ....

يبدو وأنها كانت تتوهم من البداية أيضاً ولا رحيل أو سفر. لا غربة، أو وحدة في ليال عديدة باردة...

يا الله!... كم هو وهم حميد.

الآن لا يهم، طالما هي بين يديه، فلا شيء يهم... نعم...

هو لم يرحل من الأساس ليعود، ويذهب اليوم من جديد، وإذن فلن يرحل مجدداً لأنه لم يرحل أولاً.. نعم...

سيأتي الآن ليخبرها أنه ذاهب للخارج مع صديق، ويوصيها أن تتناول عشاءها مع الأولاد ولا تنتظره

صحيح أن النهار ولى، وساعات الليل موحشة من دونه، لكنها سوف تبتسم له، وتسوي رابطة عنقه، وتخبره أن يذهب كما يشاء، وسوف تنتظره هي كما تشاء.

- "أنا خلصت تحضير الشنطة..".

لا، ما هذا وكيف؟!!...

لم تعد تفهم،... تلك ليست الجملة التي تنتظرها؟!...

"تك ... تك ... تك"....

اخترقت استدارته النحاسية مقلتيها وأذرع عقاربه المتوحشة تلتهم الثواني المسكينة، وظهرت أمام عينيها فجأة الحقيقة!...

مَنْ كانت تخدع؟!.. أو مَنْ كان يخدعها؟!.. هو ذاهب إذن!..

يوم الرحيل حقاً.. تأمين الحياة.. مستقبل الأبناء والمعيشة الأفضل..

كلها مسميات ظلت تتراص أمام عينيها وتتطاير بين جنبات الساعة الخشبية العجوز، وتدور في فلك البندول النحاسي الضخم... "تك ... تك ... تك"....

هي بين يديه حقاً، وجاء يخبرها أنه ذاهب الآن، لكن ليس للخارج مع صديق، بل إلى بعيد، خلف الحدود..

وهي ستظل هنا ترقب البندول الضخم، وربما يرقبها هو!...

يرقبها وحيدة، دون ملامحه الناعسة على وسادتها، أو فنجان قهوته الفارغ الذي يجالس فنجانها، وأيضاً دون لهفتها في انتظار عودته.

سيرقبها البندول على وسادتها الموحشة ومع فنجان قهوتها اليتيم... ودقات العاشرة، وحيـــــدة...

يصمت الكون فجأة..

"تك ... تك ... تك"...

وتكاد تسكن رقصات عقارب الساعة، فقد أضحت واهنة ضعيفة ...

"تك ... تك ... تك"...

الدقات العشر تقترب من الاكتمال...

"تك"... والسكون يطبق أكثر... "تك"...

وبقي مؤنسها الوحيد بلمعانه الباهت يذهب يمنة ويسرة، "تك ... تك"..

بعد أن حان الرحيل.

"."."

كرسي هزاز



في شرفة البيت الهرم أخذت تتمايل بين ذراعيه في هدوء، مسندة رأسها لصدره، وهو يحيطها في رعاية بيديه الشديدتين. أغمضت عينيها وهي تتحسس يديه متمسكة به، وسرحت مع صوت الأسطوانة الدائرة في (الجرامافون) العتيق:

" أحب زهر البنفسج ..

رمز الجمال الحزين ...

عبيره يسكر ويسحر...

ويسعد المحرومين .... "

نظرت إلى ركن الشرفة القريب لترى أقاصيص البنفسج المزهرة تبدو وكأنما تتمايل بدورها مع اللحن الرقيق.

دائماً كانت تشعر أن ذلك الزهر بالفعل حزين!! دائماً...

منذ طفولتها - حين كانت تزور جديها وتلهو بتلك الشرفة المتسعة نفسها - كانت حين تقترب من أقاصيص البنفسج تشعر أنه حزين، فاتن، لكنه أيضاً حزين. وحينها كانت تركض نحو جدها متسائلة، في كل مرة السؤال نفسه:

- "لم البنفسج حزين يا جدتي؟".

فتبتسم جدتها بوجهها الأسمر الفاتن رغم تقدمها في العمر وشعرها الفاحم المتهدل فوق جبينها، وتربت على شعرها:

- "لأنه مزهر يا حبيبتي...".

لم تكن تفهم!

كانت ترى جدتها وهي تعتني به وترويه على الدوام، والغريب أن أبهى مشاهده حين كان يزهر تماماً، كانت وريقاته تستميل وترنو نحو الأرض فيبدو كملاك حزين.

وعندما مرضت جدتها في العام الماضي كانت حين تفيق من غفواتها الكثيرة تلتفت لتوصيها:

- "البنفسج يا عزيزتي ..هناك تجدين هدأة النفس ، هناك بين وريقاته".

ويوم أن رحلت، رحلت كل زهرات البنفسج مع صاحبتها.

وجلس جدها يومها وحيداً بين أقاقيص البنفسج الفانية، وقطرات من ندى- ربما أو دمع لا تعلم حقاً- كانت تتراقص على حافة جفنيه وهو يتمايل بين ذراعيه مثلما تفعل هي الآن تماماً، ويدير الأسطوانة القديمة نفسها، ودمعاته حين فك أسرها تتساقط على الوريقات الذابلة.

يومها اتهمه الجميع بالجنون، وبأنه فقد عقله ليترك الأقارب والمعزين ويجلس في شرفته يستمع لاسطوانات؟!

"معقول ؟!..".

"هل الصدمة أودت به للجنون؟!".

"تعلمون كم كان يحبها!.. مسكين..".

"بالطبع، أليست رفيقة عمره!..".

"لا يجب أن يترك وحيداً...".

"اصمتوا....". هكذا صرخت هي..

هي الوحيدة التي كانت تشعر بجدها، هي والبنفسج الشهيد. واقتربت منه وجلست أمامه أرضاً تطالع عينيه رماديتي اللون والحزن قابع بداخلهما، فمسح على رأسها تماماً كما كانت جدتها تفعل وابتسم، فقالت:

- "لا تبكِ يا جدي..".

- "هذا ضروري يا حبيبتي...".

- "......".

- "تدور بنا دائرة الحياة وتصبح نفوسنا كأزهار البنفسج الجافة، تحتاج- تماماً كالبنفسج- لريها بقطرات العبرات تلك كي لا ننسى أننا بشر... كي تزهر أنفسنا من جديد، كما

يزهر البنفسج. أتصدقين يا صغيرتي أن أبهي صور البنفسج تشعرك أنه حزين !".

أومأت حينها لجدها وقالت:

- "نعم، أعرف ذلك...".

وحينها ضمتهما ذراعاه وتمايلا معاً على النغم، غير عابئَين بحديث من هنا. وأسندت هي رأسها على صدر جدها و.. وغفت..

غفت بين ذراعيه على صدر جدها ووسط أزهار البنفسج الحزين.

أفاقت من سبات ذكرياتها والأسطوانة تعود للمقطع نفسه:

" أحب زهر البنفسج ..

رمز الجمال الحزين ...

عبيره يسكر ويسحر...

ويسعد المحرومين .... "

اعتمدت بيديها على ذراعيه لتعتدل في جلستها، فطالعها لون ملابسها قاتم السواد، كما طالعتها حقيقة رحيل جدها اليوم أيضاً.

وتلمست ملوحة عبراتها بشفتيها وهمست كأنما ما زالت تحادثه منذ تلك الليلة في العام المنقضي:

- "كاد الزهر أن يهلك...".

ولمست بناظريها وريقات البنفسج المتفتحة وتابعت وعبراتها تتساقط عليه:

- "لكنه الآن ازدهر، البنفسج ازدهر ...".

وعادت تتمايل بين ذراعيه..

واللحن يتردد في أزلية....

و قد اغتال الغروب القرص البرتقالي، فأطلقت العنان لزخات عبراتها وذكرياتها..

معتمدة بيديها على.......

على كرسي هزاز.

"."."

قبُلة حارة الألوان



الثالثة صباحاً...

لا زالت كعادها مستيقظة فهكذا هو يومها، ساعات النهار لنومها، ولا تغمض جفنيها إلا بعد الشروق غالباً بساعات طوال. لكن تلك الليلة تختلف رغم تشابهها مع كل لياليها السابقة بشكل رتيب.

فذلك الليل الصامت نفسه يحيط بها، وصوت الساعات يعلن تسرب الدقائق والأيام والعمر كلها في طابور الانتظار. والمشهد الوحيد نفسه لحجرة مكتبها البسيطة والرقيقة في الوقت ذاته.

لكن في تلك اللحظة لا رقة أو جمالاً تراه.

تلمح عيناها لون الخشب الداكن على حافة مكتبها حين تبعدها عن شاشة "الإنترنت" وتتعلق بمربعات المحادثات التي تقضي ليلها بطوله فيها.

تشعر أحياناً أها تبقى ساهرة لتتحدث إليهم، وأحياناً أخرى تتحدث معهم لتبقى ساهرة..

هم!..هم سلواها،وأصدقاؤها الصغار ــ كما يسمون أنفسهم، لكنهم أبناؤها كما تراهم، وهم بالفعل يلقبونها "ماما"...

(أحمد) كاتب موهوب، لكنه أخذ من جهدها الكثير لتجعله يثق بموهبته ويعطيها حق قدرها... و(كامل) كاتب مرهف الحس، يرى القديم دائماً بمنظوره الأحدث. أما (منة) فهي الكاتبة المتوثبة دائماً، ثورية بطبعها، لكن أهم ما يميزها هو قدرتها على أن تستشف ما بنفسها، وتتميز أيضاً باسم التدليل الذي تصر على أن تطلقه عليها متخلية عن تلقيبها بـــ "ماما" كالباقين..

ابتسمت حين تذكرت أنها يوماً كتبت تقول:

(عبر الشاشة وجهك المبتسم يطالعني، وقبلة مرسلة مع رسمة كارتونية لطفلة تقفز بكل قوتها، وتمر الأيام. هل كنت معي حقا؟ هل أنا معك الآن؟!. .كل ما أدريه أنك تتجول بحجرات قلبي، وتترك في كل ركن منه أثراً منك، وما الصبر إلا راية استسلام لأقدار غاشمة.

هو الصبر دواء.. هو الصبر داء.. هو الصبر فناء، قد صار الصبر على البلاء كل البلاء)*

علّقت (منة) على سطورها قائلة:

(نحن نقنع أنفسنا أنه لا يأس ما دام هناك بقلوبنا نبض يتردد.. ومن عدم اليأس يولد الأمل في الغد عملاقاً ضخماً،

وبمرور أيام أخر يتضاءل ذاك العملاق ثانية بثانية، ونظل نبني له على شطوط العمر بيوتاً - حتى ليست قصوراً - من رمال.. ونتخيل أنّ تمسكنا بذرات الرمل، تمسكٌ بالأمل، وفى الحقيقة لا ندرى هل ما نحن فيه صبر أم استسلام؟!)

فلم تتمالك هي نفسها، وأجابت تعليقها قائلة:

(حينما أقرأ تعليقك ينتابني الإحساس بأنك لم تقرئي النص فحسب، بل قرأتِ معه أفكاري، واطلعت على مكنون فؤادي).

كانت بالفعل تشعر بذلك، دائماً تشعر بأنها.....

[لقد أرسل لك (أحمد) لتوه إشارة تنبيه!]

هكذا طالعتها شاشة الكمبيوتر وقاطعتها، فابتسمت وهي تتطلع لساعة الحائط لتجدها تقترب من الرابعة..

وأجابته كتابة:

- "هاقوم أصلي، وبعدين أعمل قهوة وآجي".

- "كل سنة وأنتِ طيبة الأول يا ماما...".

أرسلت وجهاً يحمرّ خجلاً وأجابت:

- "وإنت طيب، إنت لسة فاكر؟!..".

- "وده يوم يتنسي؟!...".

- "طيب، هاصلي وآجي".

أمام الموقد وقفت تعد القهوة وهي تتمتم بأذكار الفجر، وكلمات الاستغفار...

كانت في حاجة إليها بشدة، كلمات الله؛ فهي تشعر بالخواء. تنظر حولها لتجد كل ما ألفته موحشاً...

ورغم أنها كادت تعتاد وحشة المكان من دونه، فإن وحشته زادت تلك الليلة دون طيفه حولها.. كلماته الحانية في مثل ذلك اليوم.. وجوده الذي هو معنى الارتياح.

وجدت نفسها تستغفر أكثر فأكثر، وتتمتم ببضع آيات من سورة (التوبة)، ودمعها يملأ "كنكة" القهوة...

ثم صمتت حين وجدت الكلمات تهرب منها وتركيزها يتبخر.

ضحكت من نفسها وهي تصب قهوتها، لِمَ تصر على أن تعدها على الموقد رغم أنها تشربها في الأساس مغلية؟!

تستطيع إذن صنعها في الغلاية الكهربائية، لكن يبدو أن مراقبتها لفوران (كنكة البن) على نار الموقد أصبحت من مسلّمات الأمور لديها.

وكم من مسلمات في الحياة تتبدل بسرعة نندهش معها متسائلين، هل كانت حقاً مسلمات حياة!!

ذهبت تفتش في ملفات الكمبيوتر عن سورة (التوبة)، وجلست تنصت إليها تاركة لعبراتها حرية الانفلات، ووجدانها بأسره يردد الآيات مستغفرة.

"."."

الصمت الآن أصبح أكثر إطباقاً، لكنه أيضاً أكثر راحة. شعرت بشيء يثلج صدرها، رغم أن تاريخ اليوم لم يتبدل، و لم يزل هو سر وحدتها المضاعفة، وسر رتابة الساعات الوحيدة، وأيضاً سر ملل الانتظار الذي أضحى داء مزمناً. وهو ما زال لم يتغير ..

لا زال اليوم هو اليوم..

لا زال حاضراً لم يمضِ...

لم يمر — بعد — يومُ مولدها..

وابتسمت وهي تدير أغنية لعبد الوهاب متذكرة مقولته الشهيرة حول ذكري الميلاد:

"الواحد (يشح) يحزن لأن (ثنة) مرت من عمره"..

لكنها أبداً لم تشعر بذلك المعنى، فقد كان هو هنا دائماً.. زوجها وحبيبها، الذي يصر دائماً على الاحتفال بيوم ميلادها في أي ظرف كان.

ضحكت من حلاوة الذكرى، كان وقت إنجابها لولدها الثاني قبل تاريخ ميلادها بأربعة أيام، ورغم أنه تشارك معها في

تاريخ الشهر نفسه، فإنه لم يهزّ من مكانة ذكرى اليوم لدى زوجها، وظل بمرور الأعوام يحتفل به بنفس الحرارة والإخلاص..

لكن هذا العام الذكرى باردة، بل في الحقيقة تشعر أن نبضها هو البارد، وفؤادها يكاد يرتعش حسرة..

وتمتمت:

(ألا سحقاً لغربة وقودها القلوب العاشقة، وما التصبر إلا اغتيال لأيام - الوصل أولى بها) *

غربته هو دون الأهل والوطن، أما هي فغربتها أكثر مضياً وسط الأبناء والأحباء.

كلهم من دونه ينقصهم شيء، وكل شيء.

شيء لا يُحَسُّ إلا في وجوده، ولا تشعر به إلا من خلاله..

شيء أكثر دفئاً.. أمناً.

الصور حولها تنقصها ريشة من لون رعايته وحبه، وصبغة من حنانه لكن...

- "كل سنة وأنتِ طيبة يا حبي...".

طالعتها صورته وصوته الآتي من الميكروفون مبتسماً مرحاً كعادته، وبقبلة حارة الألوان قالت ضاحكة:

- "وإنت طيب يا حبيبي... ربنا يخليك ليّة...".

- "ويخليكي لينا...".

وفي لحظة، ورغم أن الصوت عبر الميكروفون والصورة إليكترونية، والبسمة مرسومة، إلا أنها وجدت لون اللحظات تبدل، وفرحة غامرة أضحت بها كعروس ليلة زفافها.

وها هي لمحة من رعايته وحبه، وصبغة من حنانه.

وها هو ذا الأمل يعود باسماً كطفل تحبو مع خطوه الساعات والأيام.

وفي توسل التمست من الصبر الرفق بالقلوب العاشقة... كل القلوب العاشقة.

"."."."

* من خاطرة: (وجهك المبتسم)، للأستاذة/ سامية أبو زيد.



بدون سكر



تنفست عبق الشوق مع الانتظار، رسمت أهدابها طريقاً من وهم لخطواته حتى رست يديها في يديه في أول سلام بعد أن عبر أميالاً فقط ليراها مرة بعيداً عن الشاشات الإلكترونية الباردة!.

بالأمس تلمس سبيلاً أسفل شرفتها فقط كي يرسل لها حبه على الطريقة الروميوية، واليوم هو هنا.. توقف الزمن.. تعشقت الأنامل..

طلب لها قهوة حلوة السكر، فهو يعلم أنها تحبها حلوة مؤكداً أن عينيها أحلى.

ارتشفت مع القهوة عبق الياسمين، فاستحال ديسمبر فجأة لأجواء ربيعية بدى معها كأن حلمها- الذي نقلته الأحرف الإلكترونية لشهور آفلة- أضحى حقيقة أروع من كل خيالها.

ووجدت عينيها تستسلم لرؤى وردية مرسومة بدفء نظراته...

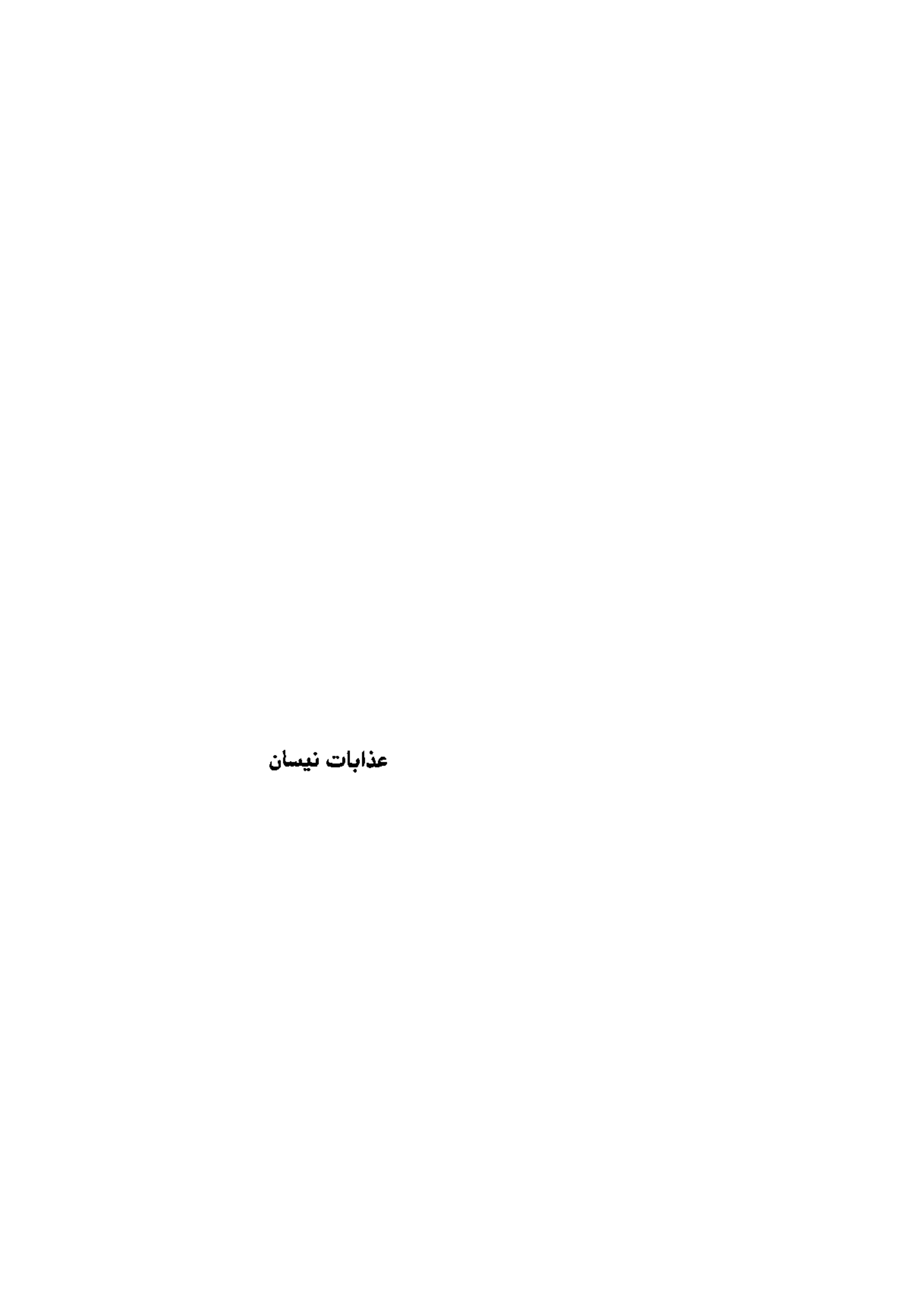
وعبرت بحور عدة...واجتازت خرافات وأساطير...

ورست أخيراً على بر أمان و..

ولكنها أفاقت هنا، لتجد رؤاها الوردية تبددت،وقلبها غريق في نفس البحور التي عبرتها سابقاً بسلام وأتاهتها الخرافات والأقوال والأفعال... وضاع بر أمانها وحبها المأمول قبل الآوان.

وبقيت هنا وحيدة، مع قهوتها الباردة... بدون سكر.

"."."."



عذابات نيسان

إلى الذي أحب بغير إحساس البشر ..

نحن – ومهما بلغت مثاليتنا – بشر

لا نسعد بالحرمان إلى الأبد، ولا نستعذب الألم طويلاً

لا يمكن أن نظل كأطياف أنوار تسبح في فضاء الكون،

فلسنا ملائكة.. وحتى الملائكة ليست تتصف بالكمال.

إلى: جبران خليل جبران

* * * *

أحس بنفسه كطيف يسري بين أشجار السرو واللوز والزيتون، في خفة الفراشات يرتحل بين البساتين والتلول المزهرة بأطراف بيروت..

بيروت مدينة الحب..

طالما وطئت خطاه جنباها، وأنست وحشته بدروها، لكنه الآن لا يخطوها غيدة وراحة، إنه يعلو فوقها..

يمس القمم الثلجية، ويلهو بوريقات الأرز.. ينصت لتغريد البلابل وشدو الشحرور، كأنما هي تنهدات تفرغ مآسيه التي طالما صاحبته طوال عقود ستة!..أحقاً مضى به الدرب لستين حولاً؟! حتى وإن كان، يكفيه أنه هو لا يزال هو.. ونيسان أيضاً كما هو وهي !! .. (سلمى) كما هي.

تلمس شاهد القبر العتيق، ومسّت عيناه أحرفه حرفاً حرفاً..

سـ .. لـ .. مـ .. ى

سماء السحر كانت من لون عينيها، ليت عمرى أضحى تلك الليلة وكفي بين عينيها، وأحرف من شفاه الهوى، متى اللقاء؟ أجيي يا عمرى الآتي

يدنو الهوى عمراً بدنو محياكِ.

ألقى نظرة على ذلك الجسد الممدد بجوار القبر، اقترب منه قليلاً يتطلع إليه ..

إنه ذلك الذي ظل أسيراً بين جنبيه يحترق بنيران عذابه، ويذبح فؤاده الأنين كل يوم مرات ومرات...

ظن يوماً أنه لن يحيا دون الألم، أو أن الألم سر حياته، فأصبح ينتشي بكؤوس الآلام، ويجرعها عن طيب خاطر الواحدة تلو الأخرى، لكنه أخيراً تحرر وقد سئم الحرمان والعذاب.

ظن أنه حتى العذاب عشقه لأنه لها، فأضحت حياته بعدها كأساً عقيمة يجرعها أبداً..

وأخيراً منحته الحياة شيئاً..منحته الراحة..

أخذت منه حياة ملؤها نهور الأدمع وجراحات الفؤاد، وأشباحاً من شبيبة أيامه.

كانت هي لمحة السعادة الوحيدة التي نالها بعمره، وأضحت سراباً بعد حين، لكنه ظل يأنس إليه وتفرحه الذكرى فرحة الطفل بقطع السُكَّر.

ليس في هذا الجسد الواهن الذي سكنت التجاعيد وجهه وعلت — رغم كل شيء — البسمة شفاهه، ليس فيه ما يذكّره بالصبي الذي كان حين التقاها لأول مرة..

لحظة لقياها علم أن للعطر لوناً، وللنسيم مذاقاً، وأن لكل شيء جماله حتى الموت!

اقترب ليرى فتى حلو الطلعة، يميل على الجسد الذي كانه منذ لحظات، ورآه يبتعد جزعاً من مرأى جسده الراحل. عاد ليقترب في تمهل ويلتقط وريقاته الصغيرة التي كان خطها بيد مرتعشة، ونفس تهفو لدنو الحرية..

رأى الفتى يفضُّ الرسالة بعد أن سوّى الجسد أرضاً في رفق كأنما يخشى أن يؤلمه ثراها، وتحرك ليجلس على بعد بعد أن لمح اسمها على شاهد القبر..

وتلمست نظراته الكلمات المتراقصة:

" كنا في نيسان.. حين تختفي رياح الشتاء، وإن ظل نسيمه البارد يسري بالأبدان، وتفرش الشمس أشعتها المذهبة على صفحة الكون، وتذوب حرارتها على ثلوج جبال لبنان..

كنا كالآن.. وإن كنت وقتها صبياً، لم تطأ خطى السنين عمري.. ولم تسقني الأيام مرارتها المزمنة.. وعرفتها. لم أدرِ أعرفتها وقتها فقط، أم قبل هذا الزمان بزمان آخر؟...

وتساءلتْ حينها، أهناك أكوان أخرى خلقها الرب غيرنا؟!

فلربما التقيتها.. في إحداها!

فقد كدت أقسم أني رأيت هذي العيون قبلاً دون النظر، وتنسمت ذلك الأريج سلفاً دون اللقاء...

وقسمات هذا الوجه قد رأيتها ــ أقسم ــ لا واقعاً ولا حلماً... بل شيء لا أدريه..

والبسمة من دون تلك الشفاه..

والصوت الذي يتردد بأدعية الكروان كل مساء...

كانت تلك هي... (سلمى)..

كانت كملكة الليل، تلتشح السكون طوال اليوم، وتظل قابعة على ذاتها البهية...

وفي المساء تزدهر لتناجى البدر والنجمات الماسية..

كانت تعشق الليل وأنسامه، الشبيه بعينيها الواسعتين..

وقلبها ..كان ذلك الكبير كالوطن، الصغير كقلب عصفور.. وهوانا..كان في هدوء المروج الشاسعة تتردد بين أضلعنا عهوده، وتحفظه أهدابنا بالنظرات..

كل ذاك في صمت..

كان تماماً كزهرة ملكة الليل الصامتة..

آه (سلمى) .. لم كنت من كنت ! لم أثراكِ الرب أموالاً سرقت من العمر فرحته، ومن الأيام لذتها..

كان الثراء علينا وبالاً...

رآكِ المطران فرصة لجمع السلطة بالمال والقوة بالقدرة..

فصرت بين عشية وضحاها عروساً.. لمن!

لأقسى القلوب وأشدها.. ابن أخ الأب بولس !! ذلك الذي يرقد ها هنا بجوار ثراكِ..

أيا حبيبة الفؤاد.. (سلمى)..

أيا عمري الراحل والآتي، أنا هنا الآن كما كنت على الدوام، منذ ليلة تأبين هوانا، وأنا ها هنا...

نعيتِ هوانا في نفس لحظة همسك بحبي!

قلتِ: أحبك ولست لك...

لا .. بل أنتِ لي، وأنا لك من حينها..

واسيتك معزياً الفؤاد أن هوانا قد تجاوز حدود البشر...

وأننا على البعاد معاً ببعد المسافات نقوى على الزمن، حتى يشاء الرب...

سوف ننطلق بمشيئته سوياً في فضاء الكون، لنمنح كل حبيبين ذرات من هوانا مع نسائم كل نيسان...

لكني شقيت زماناً طويلاً بعمري يا حبيبة أيامي.. لم تحتملي أنت قيد العهود المقدسة فذهبتِ ..

ذهبتِ ومعكِ وليدك ليهنأ بدفء ضمتك له فوق صدرك. دثروكِ بالثرى وبين ذراعيك الوليد.

ومرت بي السنوات لأكون ما أنا الآن...

جسد واهٍ..

وعينان لا ترى إلا مروج هوانا وأماكن اللقاء..

ورأس فيه اختلط الشيب بالصبا..

ونفس سئمت رِقّ البدن..

أحس الآن يا (سلمى) بدنو عتقي من هذا الرق، أحس صوتك من بين الثرى يناجيني..

أحس بلمسات أناملك في مس الأغصان ها هنا، التي رويتها بذراتك... تداعبين شعري الحين كما فعلتِ يوماً بحنو، أنتِ الآن أكثر حنواً وأدنى موضعاً.

دثروني بين أشجار نيسان وأودعوني بين ذراعيها..

حبيبتي (سلمى) ..

وسدوني وهم أحضانها.. دعوني ألثم ثراها وأمتع النظر بخيالات رؤياها!"

بعدها، لمح الفتى يتطلع لجسده الساكن، ووجهه الباسم رغم الرحيل، وتطلع للفضاء يبحث عن أحد.

ربما يبحث عن نفس شريدة تتوسل وهم اللقاء، وترقرقت دموع عينيه طاوياً الرسالة وهرول للحفار داعياً، فأتى الأخير نحو الصوت الذي يحمل نبأ وافد جديد للحياة الأبدية...

- "قد توسل الراحل اللقاء فدعه يمر إليها"

- "من يكون لأجعل مثواه لديها؟".

- "من هو!!".

- "نعم .. فمن هو؟!!!".

- "هو ! هارب من عذابات نيسان.. ذاك هو".

..*.*

حمام دافئ



استمرت زخات مياه الاستحمام في الانهمار على جسدي مختلطة بعبراتي، وكلما انهمرتْ أكثر بكيت أكثر فأكثر. فها هي تسلبني مسّاته الدافئة... كرهتُ نفسي وأنا مستسلمة لفعل المياه بجسدي!

كيف أتركها تمحو عني لمساته الأخيرة؟! .. الأخيرة!!

أهي الأخيرة حقاً؟!

"."."."

اهتزت "كنكة" القهوة أمامي فوق الموقد، من بين عبراتي التي تسجنها أجفاني..

تأكدت أنه قد بقي أمامها بعض الوقت لتنتهي، فاستسلمت للشرود، لكن دون أن يفك أسر دموعي.

ذلك "البُرنس" الأبيض الذي أرتديه كم أعشقه هذا "البُرنس"

هي اختارته، حبيبة عمري.. زوجتي!..لكن لم اندهشت من تردد اللفظ في ذهني لهذا الحد؟!!..

نعم، هي زوجتي لكنها.... ماذا؟

هي كانت ناعسة هنا على صدري منذ لحظات قليلة لآخر مرة، وخصلات شعرها الداكن تداعب ذراعي المحيطة بها و...

لآخر مرة !!.. حقاً ؟!!.. أهي آخر مرة يا عمري الذاهب؟!

قبضت عضلات صدري في جنون ومسسته في لهفة أنستني القهوة أمامي، أبحث عن حبيبتي فلا أجدها!! ..

ولكن فجأة، ارتطمت كفي الأخرى بـــ "كنكة" القهوة لتنسكب عليّ بالكامل.

"."."."

كرهتُ ذلك الصابون الفاخر الذي يلوث جسدي برائحته ويمحو مني رائحة حبيبي..

لقد كرهتك حبيبي أنت نفسك لأنك مَنْ اخترت لي ذلك الصابون اللعين!

كيف اخترت لي أن أمحو ذكرى لمساتك؟!.. أي قاسٍ أنت!!

لا أملك إلا أن أسكب المزيد والمزيد منه..

تنهمر المياه اللعينة لتأخذ معها رغوة الصابون المعطرة ببقايا لمساته..

أراها تعدو مبتعدة أمام عيني في أرضية حوض الاستحمام..

أهكذا؟!كل شيء يذهب هكذا كفقاعات صابون خاوية!

"."."."

لملمتُ بقايا "البُرنس" الملوث بالقهوة المنسكبة، واتجهت بيدي المحروقة نحو الماء..

لا أدري كيف فك أسر عبراتي المعتقلة منذ الأمد الآن!.. ليس الحرق يؤلمني لتلك الدرجة، وإن كان الكي بقلبي أشد وطأة على نفسي. أشعر بملوحة عبراتي تتساقط لتلهب صدري، لتمحو أكثر فأكثر دفء ضمتها..

ما الذي يفعله بنا القدر؟، بل ما هذا الذي نفعله بأنفسنا؟!!

يا الله..

إنها تصرخ !!.. حبيبتي!!

"."."."

لا أدري كيف أشعر بكل هذا الدفء وأنا خارج محيط ذراعيه؟!

بل كيف أظلمتْ الدنيا فجأة هكذا؟! .. ماذا حدث؟!!

كنت أتابع جريان الصابون أمام عيني الغائمة ولا أذكر شيئاً بعدها. هذا الظلام لأني مغمضة العينين..

إنني بفراشي!!.. فتحت عيني لأجده هنا، حبيبي وزوجي..

والدفء الساري بجسدي لأنني بين ذراعيه مرة أخرى، إذن، لم تكن الأخيرة!

كنت أتوهم؟!

من المؤكد أنني توهمت هذا الكابوس المزعج، والدليل أنني دافئة بفراشي وداخل ضمته الحنون، إذن، كنت أحلم، ولم أكن أستحم أو أفعل شيئا.. وذلك الخاطر السخيف بفراقنا مجرد كابوس لعين..

و ....

- "حبيبتي، قد زلت قدمك في حوض الاستحمام أم ماذا؟".

قالها وهو يمسح على جبينها لتكتشف أن شعرها مبلل،

ما هذا ؟!!

لم تعد تفهم شيئاً.. إذن، كانت تتحمم وزلت قدمها.. أي أنه الواقع!

وأوان الرحيل قد حان..

تمسكت به باكية:

- "حبيبي .. تلك النهاية إذن؟!..".

- ....

- "لكنك تعلم مدى حبي لك..".

أراحها على الفراش مبتعداً:

- "نعم، أعلم، ولست أقل منك في شعوري نحوك، و لم أتوقف لحظة عن حبك رغم سنوات الفرقة..".

نهضت مبطئة في تمهل، فلا يزال دوار رأسها يشتتها، لكنها اقتربت منه تتطلع لحنو عينيه:

- "أعلم أنه لا مفر".

- "نعم، أعلمه أنا أيضاً..".

لحظات مرقت كالريح، تشابكت فيها نظراتهما..

شوق مجنون يجتاحهما..

كل الأفكار تتداعى الآن..حُب.. فراق.. سنوات من البعاد..

.. ضمتها ذراعاه الآن..

لقاء مرة أخرى، لكن .....

كان قد أصبح زوجاً وأباً، وحاربت طويلاً كي لا تأخذه منهم ومنها..

زوجته !! .. تلك الصفة كانت أملاً لها، كانت حلمها، وأضاعت سنوات دون التفكير في سواه..

واجهت اعتراض عائلتها لعدم زواجها للآن، وإلحاحهم بابن فلان وعلان..

و .....

و ....

وأخيراً .. قررا الزواج..

ثارت العائلة.. وغضبت الأم.. وصدمت الزوجة، لكنهما صمما..

لم يكن من المعقول أن يضيعا مرة أخرى!

يخسرها ثانية أو تخسره؟!!

لا .. وألف لا..

قالا "سنتزوج"، فسلّم الجميع بالأمر الواقع.. وتزوجا ..

.. تشعر بدفء أحضانه مرة أخرى..

.. مرة رائعة..

طوال خمسة أشهر، شعرت أنها تمتلك الكون بجنباته..

نعمت فيها بصنوف الحنان والهوى اللذيْن طالما حلمت بهما..

خمسة أشهر، وجد حلم عمره بين أحضانه..

يشعر بحبها له يغنيه عما سواه، و ...

.. فتح عينيه ليجدها ناعسة فوق صدره..

ظل سارحاً في ظلام الغرفة، أخذ يمسح على خصلات شعرها في حنان متطلعاً لملامحها الحبيبة..

لا مفر.. ليس في الإمكان الاستمرار هكذا، يكفيه ذلك، قارب أن يدمر لها ما تبقى من حياتها..

خسرت عائلتها، واعترضت على إرادتهم، ولم تنل منه سوى نصف حياة..

كيف يرتضي لها بذلك؟!.

إن كان حقاً يحبها لا يجب أن يسجنها بقيد حبها له.

شردت وهي مغمضة العينين خشية أن يشعر باستيقاظها فيبعدها عن أحضانه..

لم يكن يهمها إلا قربها منه، ونجحت في ذلك، ولم تشعر بذنب تجاهها.. زوجته الأولى..

هو كان عادلاً جداً بينهما.. لكن ابنيه شعرت أنها رغماً عنها ورغم حبها لهما أنها تأخذه من حياته الطبيعية معهما. هما في سن يجبره على الوجود معهما باستمرار، وبالطبع هو لا يفعل ذلك..

هو بين العالمين؛ عالمه الأول زوجته وأبنائه، وبين عالمها هي..

حبه الوحيد الغالي..

هي تعلم ذلك، لكن ليس بعد الآن.. أحقاً !!

.. فتحت عينيها متطلعة إلى عينيه..

وجدته مثبتاً نظراته على عينيها بدوره..

وجد نظراها تلاحق أنفاسه حتى..

ذراعيه تضمانها بقوة..

يديها تتشبثان به في حنين..

دارت الكلمات في ذهنيهما في جوف الظلمة:

- "إن كنت سأفعل هذا فيجب أن يكون الآن..".

- "أيجب حقاً أن يحدث هذا!!".

- "لا .. لن يحدث...

أنت زوجي، وليتعلم الكون تقبل هذا..

أنتِ زوجتي، ولن أدعكِ يوماً وحيدة..".

أطبقت أهدابها على صورته.. زرع ضمتها في صدره..

ليس للمرة الأخيرة.. همسا معاً:

- "أحتاج لحمام .. دافئ"

"."."

العودة



هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساءا

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباءا

دار أحلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد

أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

"إبراهيم ناجي"

" . " . " . "



ضباب يرتفع ليحيط بها، تعلم أنه بداية الحلم!..

هي تعلم أنها الآن في سبات عميق جداً وعلى وشك أن ترى حلماً جديداً، وطالما اندهشت في كل مرة كيف تكون مدركة هكذا أنها تحلم؟!

ولكن هذا ما يحدث حقاً. إنها تحلم، وها هي ذي الصور بدأت في الخروج عليها من بين ضباب أوهامها.

لا تعلم لماذا ترى نفسها في تلك السن الصغيرة؟!

ترى صورتها منذ أكثر من عشر سنوات. كانت بعد مراهقة صغيرة حتى أنها ترى جسدها داخل زيها المدرسي المميز وتكاد تشعر "بذيلي الحصان" المشاكسان فوق كتفيها.

ترى بين يديها كتاب.. فقط كتاب وحيد وليست مجموعة كتب كالتي كانت تنعس بين ذراعيها في طريقها من وإلى مدرستها...

إنه ليس كتاباً،إنه ديوان شعر معنون باسم (إبراهيم ناجي)!

كانت تتسلل كلماته نافذة من بين أهدابها إلى داخل روحها، فتشعر بقدميها تدور بها حالمة فوق وريقات الزهور، ولا تدرى من أين تنساب تلك الموسيقى وهي تتمتم:

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساءا

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباءا

دار أحلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد

أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

*

وعادت...

انزاحت أهدابها وهي لا تزال محملة بعذب الأشعار، لتطالع شعاع مشمس يتسلل في خجل من خلف الضباب الشتوي. بدأت تفيق بابتسامة صاحبتها حتى توجهت نحو مكتبتها التي هجرتها طويلاً، وتناولت ديوان (ناجي) الذي كان بين يديها في حلمها..

هو نفس الديوان الذي أهداها إياه أباها وهي في المرحلة الثانوية ......

حين جاءته فرحة تخبره أن المدرسة اختارتها وبضع زميلات لها- من المتفوقات في اللغة العربية- لإلقاء قصائد كبار الشعراء في احتفال كبير.ونصحها باختيار قصيدة لـــ (ناجي)،فرقته

تناسبها.لكن سرعان ما هربت البسمة الهزيلة وترقرت دمعات شفافة لم تحل دون مطالعة أبيات (ناجي)، وانسابت أخيراً:

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباءا

ها هو يعود أخيراً.. تماماً كما عاد (ناجي) في أبياته، سيرجع غريباً عنها.

كم انتظرت يوم عودته بشوق كاد يمزق أضلعها، وقد تمزقت ولكن... من قسوة هواه لها!

أحبها لحد القسوة عليها، فقُتل هواها في مهده وتطاير شوقها لعودته. للآن أشياؤه الصغيرة تعذبها..

ذلك القلم، خطت له به كلمة "أحبك" حين خجلت عنها شفاهها.. تلك الزهرة تنسمت أنفاسه وهو يقبلها إهداءاً لها... وهنا عينيه من صورته تطل عليها في هوى ما عرفته بين البشر.. وحول أناملها حرارة كفيه المحبة والخائفة لا تزال تشعرها. ولم يتبقي لها أو لأشياءه تلك سوى حسرة على أحلام وردية بيوم.. العودة.

".".".

---

* من قصيدة: (العودة)، للشاعر/ إبراهيم ناجي .



تشربي قهوة



جلست تنظر هناك عبر النافذة ذات الزجاج العسلي الشبيه بلون عينيه، فلم تكن قادرة أبداً على أن تترك عينيها في مرمى نظراته أكثر!.. تمتم كأنما يحادث نفسه:

-"تشربي إيه؟!

ولا أختار لك زي العادة تشربي قهوة؟

أنا عن نفسي بموت فى السادة بس غريبة، وأنـا ويـاكي بادوقها زيادة"..

لم تقاطعه .. لم تنبس بحرف، تركته مع كلماته... فما أحلى ذوبانها فيها بكل مشاعرها..

تطلعت للون القهوة.. ولون الياسمين الذي يتوج الطاولة.. ولون شعاع شمس الغروب المتسلل نحو عينيها ليزيدها لمعاناً.. لون الأشياء كلها الآن مختلف، له نكهة تحمل نبضات صوته الحانية..

تشعر بحنو نظراته إليها، تشعر أنه يضمها حين يطبق أهدابه على صورتها... ترتجف أكثر..

لمسة يديه لأناملها وهو يجلسها بجواره لا زالت تخدر كيانها كله..

مدت أناملها تلملم بعضاً من أبخرة القهوة المنبعثة برائحة (التحويجة) التركي، وأغمضت عينيها منتشية بعبقها، أو ربما لتستطيع التقاط أنفاسها..

عادت أنفاسها تتوتر وهو يهمس لها:

- "قهوتك هاتبرد..".

احتضنت الفنجان بكلتا يديها خشية أن تسقطه رعشتها، وارتشفت قطراتها الساخنة لتهدأ قليلاً، فعاد يهمس لها:

- "حاسبي تندلق عليك..".

- "طيب..".

- "حبيبتي!".

- "ها ..".

- "ساكتة ليه؟!".

- "عايزة أحس بيك هنا جنبي..".

- "أنا دايماً جنبك..".

- "قهوتك مظبوطة؟!".

- "لما شفايفك بتسيب بصمة على الفناجين وأشرب بعدك تبقى القهوة بطعم فراولة زي السكر بتتوهنى مع التايهين وتنسيني طعم القهوة ومعنى الدنيا وألقى القهوة بقت ياسمين" *

- ....

- "سكتي تاني ليه؟!".

- ....

- "حبيبتي!".

- "نعم".

- "ما تحرمنيش من سماع صوتك وكلامك، خليني أحسك بكل كياني،خليني كمان أحفر ملامحك في قلبي..".

عادت تصمت.

برودة الجو الآن ليست شبيهة أبداً بأول لقاءاتهما هنا..... كان يوليو الحار يهيمن على زرقة سماء العصاري، وشمس الغروب لم تكن حانية كالآن، لكنها كانت تتسلل من

النافذة العسلية نفسها الشبيهة بعينيه، وكانت أيضاً تاركة عينيها في مرمى أشعتها بدلاً من مرمى عيونه..

ارتشفت قطرات أخرى من قهوتها،وهمست:

- "لكن ملامحي طبيعية جداً وعادية!".

اقترب همسه ليسري ق أعصابها:

- "طبيعية أيوة، وده سر روعتها.. لكنها مش عادية بالمرة، هى مش ملامح مبهرة تتنسي بعد لحظات، أنت جميلة فعلاً، وجمالك زي ما يكون جزءًا من الطبيعة..".

- ....

- "مش معقول، رجعتي تسكتي!".

- "ازاي ألاقي كلام أرد بيه بس؟!".

- "مش عايز كلام، بس سيبي عينيكي في عينيه..".

- "ده أصعب..".

تطلعت مرة أخرى للمكان حولها.كل شيء كما هو، يظل دائماً كما هو حتى مع ترددها على المكان كل فترة..كل شهر تحديداً.. نعم، كل بداية شهر جديد تأتي إلى هنا في نفس اليوم.. ونفس الموعد.. ونفس الطاولة .. و.... ونفس القهوة..

تنهّد، وعاد يقول:

- "عارفة ..

لو اللي اكتشفوا القهوة في مرة داقوا شفايفك على الفناجين
كان حرموا ع الناس القهوة وما يشربها غير الحلوين
واسألي مرة أهل السامبا وأهل الصين

حايأكدوا إني عشقت شفايفك.. قبل البن.. وقبل القهوة..

وقبل ما يخترعوا الفناجين" *

ظلت صامتة، واستسلم هو لصمتها فى النهاية. وظلت فقط لغة السكون تلك تسري بينهما..

تذهب وتجيء بين فنجاني القهوة.. يختلط عبير الياسمين بتحويجة القهوة..

عيناها فى مرمى الأشعة الذهبية، وهمس أنفاسه يبعث جواً من الدفء حولها..

تنهي القهوة..

تشير إلى النادل فيحضر لرفع الفناجين، بينما تلتقط هي الياسمين من مزهريته، وتسأل:

- "تسمح؟".

- "أكيد .. اتفضلي".

- "أشكرك جداً".

وتذهب..

يظل النادل يتطلع لها كما يفعل كل مرة تأتي فيها إلى هنا ويلحق به زميل له مستفسراً:

- "ما لك ؟ .. وإيه حكاية الزبونة دي؟..".

- "تخيل إنها جت مرة واحدة هنا معاه، من حوالي سنة.. ومن ساعتها باشوفها تيجي في نفس اليوم من كل شهر، وتاخد نفس الترابيزة، وتطلب اتنين قهوة في نفس الوقت.. تشرب المضبوطة، وتسيب التانية أدامها، وبعدها تلمس طرف الفنجال التاني بشفايفها بمنتهى الرقة وتقوم تمشي!..".

- "يا سلام!!!".

تجاهلت حديثهما وهي تتمتم عبر سماعات هاتفها المحمول ضاحكة:

- "فاكرين إني اتجننت..".

- "ليه بتعملي كده بجد؟!".

- "ما تحبش تشرب قهوتك معايا في نفس معادنا!"

- "ايوة، لكن..".

- "من غير لكن، أحب أشرب قهوتنا في نفس معادنا لحد ما ترجعلي بالسلامة".

"."."."

---

* من قصيدة: (تشربي قهوة)، للأستاذ/ جابر المصري .

حديث دمية



كانت في عينيه دُميةً عنيدة، لا تُردد سوى نغمـــةً واحـــدة وحيدة "أحبني كما أنا ..أو أرحل ."

كانت لعبةً في يد أوهامها وكانت من الغرور لـستظن أنهـــا دائماً على صواب، و لم تعرف معنى كلمة "أحبكَ" التي طالمـــا رددها على مسامعه .

أبت أن تتبدل وبقيت كما هي تعاني ذلك الـــصلف وذاك الكبرياء السخيف مدعيةً استقلال ذاتها وحريـــة قلبـــها، وفي الحقيقة كانت جوفاء من داخلها. تلك المجنونة ترفضُ كل هواهُ العظيمُ هذا، فقط لأنها ترى إرضاءه أمراً ينالُ مـــن شخـــصها المتعالي.

أطبقَ على عنقِ الدميةَ يحذرها، إما أن تكون كل خيوطهـــا بين أنامله هو- كدليلٍ حقيقي على هواها- أو تعترف بأنها لم ولن تعيش إلا لذاتها البالية بأفكارٍ من خارج نواميس الغـــرام! ظلت تُردد: "أحبني كما أنا.. أو أرحل."

"أحبني كما أنا.. أو أرحل."

"أحبني كما أنا.. أو أرحل."

ولكنه قبل أن يرحل حاول أن يحطمها ليخرس جملتها العقيمة، كطفلٍ يدمر لُعبته الغالية باكياً ظناً منه أن أيامه ستمنحه بديلاً أغلى.

وساد صمتٌ من حوله أسلمه لأيامه وحيداً.. وعاد لينظر فوجد قلبه منشطراً بالوحدة ومحطماً بالندم، وشفاه امرأة ببسمة حزينة تتمتم :

"أحببتني على غير ما أنا ورحلت، وبقيت أنا كذاتي.. لست دمية.

"."."."

نمرة تليفونك كام؟

جلست أمام شاشة الكمبيوتر في آلية كعادتها، تـــصفحت عملها الأخير في تلقائية سعيدة..

أصبحت الأحرف المتراصة على سطح الـــ"كي بورد" أكثر أُلفةً حتى أضحت تتعامل معها أوتوماتيكياً، ولكنها لا تـــدرى متى ستنهي ذلك العمل الذي يؤرقها منذ فترة!

لكن الحق، هي مستمتعةً به لدرجة المللِ والرتابةِ!!

نعم.. مللٌ ورتابةٌ، من فيض عشقها للحـــروفِ والألفـــاظِ أصبحت تسلم عينيها وأصابعها- بل وكل حواســـها- للـــ تصحيح فصلاتٍ وشدّاتٍ ونقاطٍ هنا أو هناك.

تعشقُ الحروفَ لدرجة الجنون، بل مؤكد أنها مجنونةٌ في حدِ ذاتها. أهناك عشق لدرجة الملل والرتابة؟!!...

مجنونة تماماً.

تسعد كثيراً حينَ ترى فاصل يعلن إنتهاءَ فصلٍ جديد مـــن روايتها، وتظل تحسب كم تبقى لترى النـــور والآراء. بقـــيَّ

القليل، وتجلسُ في انتظارِ الآراءُ المستحسنةً تنهال على بريـــدها الخاص و....لكن هل حقاً ستكونُ آراءً مستحسنة؟!

فعلت بنا هذا تلك الشبكة الإنترنتية فأضحى تلقي القارئ لابدعات الكُتاب لحظياً تقريباً، وهنا مربطُ الاختبار. الأيام التي مرت كبرق صاعق في انكباها على مراجعـــة الروايـــة، بعـــد ساعات- وفور انتهائها منها وعرضـــها علـــى الـــصفحات العنكبوتية- ستتحول لسلحفاة عجوزٍ تنوء بخطواها وتورثهـــا السأم في انتظار آراء قرائها ومحبيها!

"يا إلهي.. لم التعجل إذن؟!"

قالتها في نفسها وشعرت بالملل كالعادة، فاتجهت لتـــصفح بريدها علها تجد كلمات مشجعة أو ما شابه تدفعها للعودة من جديد صاغرةً للـــ "كي بورد"... و..

"ما هذا؟"..

الاندهاش ملأ صمتها، كيف لم تلاحظ الخبرَ وهو معنـــونٌ بتاريخ أولِ أمسٍ؟!

أمعقول أن تفوتَ تلك المناسبةِ وتكون الوحيـــدةُ الـــتي لم تبارك له فرحته؟!.. لا.. لا من غير المعقول طبعاً لكـــن... لم كل هذا التردد؟!

مترددة في الاتصال به حقاً؟!.. أمر غريبٌ!

الأمر بسيط، اسمه الآن على شاشة هاتفها المحمول ما عليها إلا أن تضغط زرَ الاتصال..

ما بالها إذن؟!

هي تعلم ما الأمر، لا تريده أن يظنها تبحث عن سبب للتواجد في حياته- إن لم يكن يريده هو- أو تكون بذلك تدفعه لاهتمام خادع لها هي قبله.

إن كان ما بينهما حباً، فعليه أن يكون مهتماً من تلقاء نفسه.. وحريصاً على هذا الأمر من تلقاء نفسه أيضاً. كلما كانت تنبهه إلى أنه قصيٌّ عنها- حتى مع قرب المكان- يتناول حديثها مستخفاً أو ملولاً، ويعتبره محض طفولةٍ من عقل إمرأة!

لذا قررت أن تصمت. هي لا تحب الحزن بينهما وعليه أن يشعر هو الآن بواجباته نحو علاقتهما تلك، عله يعثر على نبع حياةٍ بداخله يروى به نبتةَ هواهما الذي أوشك على الذبولِ في مواجهة برودة الوحدة.

لكن.. لا يزال عليها الاتصال، فلا يمكنها أن تتركه وحيداً في مثل تلك المناسبة...

وحيداً!!.. أهو حقاً وحيداً بـدونها؟!.. أشـعر حـتى بعدها؟!..

على كافة الأمور يجب عليها الاتصال.

أخيراً ضغطت زرَ الاتصال وبقيت في انتظار صوته و...

"يالله.. ينفذ الرصيد اللعين حين احتاجه فقط!" تـذمرت لتلقي بالمحمول وهي تتجه للهاتف الأرضيَ.

"اتكلم أرضي يا ابن بلدي... ولتحيا مصرُ للاتصالات"...

يالهي، حتى السخرية تخلف مرارة في القلب حـين يمـلأه الحزن!.. لكنها مثل الابتسام لخمسٍ دقائق يمنح النفس بعـض البهجة، كما يقول علماءُ النفس.. ولكن أي نفسٍ فدائية قادرة على السخرية حتى تنتزع المرح من رحم همومها!

تنقر رؤوس الأرقام الآن..

"حياتي بين الأحرف والأرقام"... هههههه

سخرية أخرى ارتجفت على شفتيها وهي تعلم بوقع صوته على نفسها والذي أصبح وشيك.

٠١ ....

ماهذا؟!!.. أنسيت رقمه؟!!

أمعقول هذا؟!!

هي من تتندر بذاكرة أبجدية ورقمية لا مثيل لها تنسى رقماً!.. ورقمه هو؟!

نعم نسيته، هي تعتصر ذاكرتها لتستكمل باقي الرقم بلا فائدة... يتعالى صفير الرسالة الإلكترونية مطالباً إياها بوضع السماعة ولا تعيها مع عبراتها المتسللة إلى عينيها.

ملعونٌ هذا الجفاء..

لم تركها هكذا؟!.. لقد ظلت تنأى عنه خائفة من الخلافات والمشاحنات والانتقادات منها ومنه..

مرت الثواني كسنواتٍ وهي تعلق السماعة في يدها متصورة خاطر مرعب أبكها، أنها بعد أن نسيت رقمه ربما تخونها ذاكرتها في ملامحه يوماً!!.

فزعت من بين دموعها على دقات المحمول، إنه هو...

تمنت لو لم تحفظُ الاسمَ لديها فترى الآن الرقم وتعيد حفظه كتلميذة تسترق النظر خلسة لمحفوظة سهوت عنها.

أجابت مسرعة وهي تهتف:

- " كنت لسة هتصل بيك حالاً والله."

- "إنتِ عاملة إيه؟"

- "أنا بخير.. ألف مبروك"

- "الله يبارك فيكي يا حبيبتي، إنتِ عرفتي؟"

- "لسة حالاً بس.."

- "أنا كنت بتكلم عشان تشاركيني فرحتي."

- "بجد؟"

- طبعاً عندك شك!"

- "حبيبي.."

- "نعم."

- أنت نمرة تليفونك كام؟"

"..."

دوامة هواك



هو: أحبكِ

هي: أخاف منكَ

هو: تخافين؟!

هي: شكوككَ قاتلة!

هو: ليس شكاً.. بل خوفاً على حبي لكِ

هي: ظنك حائلاً بين قلبينا!

هو: لكني أحبكِ، أفلا يغفر لي حبي؟!

هي: أخاف أن أحبكَ!

"."."."

هو: اشتقت لكِ

هي: ......

هو: لن تخافين بعد الآن، أنا هنا إلى جواركِ

هي: لم تكن قريباً مني بهذه الصورة أبداً!

هو: بعد المسافات هو ما حال بيننا ربما، ربما هو سبب خوفي

هي: خوفكَ!!

هو: شكي وظني كما تقولين

هي: والآن؟

هو: أنا هنا، لن يحول بيننا سوى صدكِ أنتِ

هي: ......

"."."."

هي: أحبكَ

هو: ماذا قلتِ؟

هي:......

هو: أعيديها

هي: أحبكَ

هو: حقاً؟!

هي: لم أتصور أن أحبكَ بمثل تلك السرعة

هو: هذا لأنكِ شعرتِ بي عن قرب

هي: إذن ابقي إلى جواري دائماً

هو: أنتِ داخل ضمة فؤادي

هي: وأنت في عيوني

"." "." "."

هو: أتحبينني؟

هي: طبعاً احبكَ

هو: لا أشعركِ بقربي حقاً!

هي: بعد المسافات لا يباعد بين القلوب يا حبيبيّ

هو: فؤادي يفتقد ضمتكِ

"." "." "."

هو: أتحبينني؟!

هي: ألازلت تسأل؟!

هو: لم أنتِ بعيدة عني؟

هي: تلك مجرد أوهام خلقها بعد المكان..

هو: ......

هي: جرب أن تغمض عينيكَ ستشعر أنكَ هنا بفؤادي

هو: أحبكَ رغم كل شيء

"."."."

هو: خدعتِ قلبي!

هي: أنا؟!

هو: أنا ما فعلت شيئاً سوى هواكِ.. فلم؟!

هي: ما خدعتكَ أبداً!!

هو: وماذا عنه؟

هي: من هو؟

هو: من كان قبلي..

هي: لم يكن شيئاً.. ما أحببته

هو: فلم كذبتِ؟

هي: ما كذبت!

هو: سألتكِ فكذبتِ

هي: ما كذبت، أخبرتكَ بما كان

هو: لم تخبري.. أخفيتِ ما سألت عنه

هي: تفاصيل لم أكذب بها، لكنها كانت ستثير غيرتكَ فتجنبتها

هو: والآن وقد علمتها

هي: ما علمته لا يدينني، أنا لست متهمة..

هو: مجرد أن أخفيتِ الأمر ذنب

هي:......

هو: لم الصمت؟

هي: أنتَ لم تتبدل.. كانت حقيقتكَ الشك كما عرفتكَ دائماً

هو: أنه مجرد تساؤل، فقط أريد المعرفة

هي: إن لم تشعر بفعلكَ للآن ستعرفه مع الأيام يا... حبيبي

"."."."

هو: تلومينني على حبي وغيرتي؟!.. طلبت فقط أن تصارحيني

هي: ليس عندي حديث آخر

هو: لأنك أذنبتِ

هي: (صمت مرير)

هو: صمتكِ أبلغ دليل

هي: في نظركَ أنا متهمة، ولكنك لست دفاعي لتبحث لي عن دليل براءة يدعمه حي في قلبك.. أنت المدعى عليَّ وتبحث لي عن أي دليل إدانة وكفى

هو: لم اقتربتِ مني إذن فجأة؟.. أليس لكي تنسيه بي؟

هي: أحببتكَ

هو: رغم ذنبكِ أحبكِ

هي: اجتثت وروداً غرزتها في قلبي..

وأطفأت شموع هوايَّ..

وملأت أغنيتي بالدموع..

أنت لم تمنحني هوى، قد أغرقت عمري في دوامة هواكَ.

"فلتنظر يا حبيبي في مرآة سليمة، مرآتك مشوشة تراني فيها بشعة.. تراني على غير ذات الحقيقة.

أعلم وستعلم أنكَ يوماً ستعرف الحقيقة، لكن خوفي من فوات الأوان!"

"."."."

سر الفجر

"اللهم منكَ السلام، وإليكَ السَّلام، تباركتَ وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام"

نهضت من صلاتها، وعيناها تجوبان كل أرجاء غرفتها..

كأنما تريد أن تضم كل تفصيلة بين أجفانها، أو فقط تلثمها بأهدابها، واستقرت أخيراً بهما فوق ذلكِ الرداء الأبيض!..

هو الشيء الوحيد الذي ستصحبه معها...

جلست على طرف فراشها تتمتم بتسابيحها وهي تراقب تسلل خيوط الفجر لغرفتها، وتهمس لنفسها وعيناها تلمحان اقتراب عقارب الساعة من السادسة:

- "اقترب الموعد".

تشعر اليوم كأن ذلك القادم المتسلل من نافذتها لصاً!!!

جاء ليسلبها كل سنواتها الماضية، ولن يترك لها منها سوى ذلك الرداء الحالم وطرحته الملائكية الشفافة....

صحيح أنها تمنت ذلك اليوم لليالٍ طوال، إلا أنها تشعر شيئاً غريباً يعتريها...

هي تحبه، ما من شك، لكنها لا تدري كيف ستترك كـــل عالمها السابق في لحظة؟!!

تستدير لتنظر لصفحة فراشها الوثير في حنان، ثم تذهب بعد لحظة لتتمدد عليه كأنما ترغب في الاحتفـــاظ بملمـــسه فـــوق بشرتها...

هي حقاً سعيدة جداً أن الله قد مَنَّ عليهما بالقرب بعد كل تلك السنوات، لكنه الحنين..

الحنين الذي هو سر قلبها النابض.. لا تستطيع النسيان، ولا يمكنها...

صحيح أن حبها له دام سنوات عبرتها من تلـــك الغرفـــة، وصحيح أنها تمنت من الله هذا اليوم طويلاً، إلا أنها تشعر أنـــه هو وذلك الفجر لصان!!.. يسلبانها – برغبتها – كل شيء..

عالمها كله كان بتلك الغرفة...

كل ركن به سنوات عديدة وذكريات كثيرة...

وأحلام ساذجة بريئة..

وأحلام أخرى بعيدة..

هو نفسه كان جزءا من مفردات الغرفة، حين كانت تقضي ساعات تفكر في مثل ذلك اليوم الذي منه تبدأ عمراً آخـــر.. لكن، أتستطيع حقاً ترك العمر السابق هنا؟!!!

هو يقول نعم، وسيكون لهما عمراً آخر يصنعان ســـنواته معاً...

إذن، هناك حياة بديلة، أو هي حياها وما مضى قبلاً لـــيس إلا البداية ؟! ..

ماذا عنه هو؟! ..

ليس حبيبها، بل هو..

إنها تعني زائرها مع كل فجر، من تتابع خطى الدقائق الآن في انتظاره..

الرجل الذي حل في حياتها محل أبيها الراحل. من الممكن أن تحمل بين ثنيات الذاكرة بعضًا من الغرفة إلا ذلك السر، ســـر كل فجر...

لن يكون من حقها أو حقه أن تظل تنتظر لقاء الفجر هذا، فهو بالنسبة إلى زوجها ليس أباها حقاً...

ورغم أنه لا يعلم بالفعل سر الرجل!.

هو حقاً دائماً لها كالأب، لكنها ليست كذلك لـــه، هـــي كانت له منذ لحظة أن عرفته الحبيبة المفقودة لسنوات مضت.. لؤلؤته، كما يحلو له تسميتها...

هي من ظل طوال عمره يبحث عن هواهـــا، لكـــن إرادة القدر جمعتهما، وهي قد أصبحت لآخر..

الغريب أن سعادته كانت في أن يحقق جمع شملها على مَـــنْ تحب!

هو حقاً كذلك...

مع رجاء وحيد أسرَّ لها به يوم اعترافه بهواهـــا، أن تتركـــه يحبها دون تدخل منها!! ..

كان بالفعل يمنحها شعورها المفقود بحنان أبيها، ويحـــتفظ لنفسه بشعور العاشق الذي ظل قابعا من الأزل في ركن بزاوية قلبه. حين أحبها أخبرها معترفاً وضاحكاً أنها استولت علـــى كل غرفات قلبه... البطينين والأذينين..

كان يعلم أنها تحب، وكانت تعلم أنه يحبها هي...

لن تستطيع أخذ ذكرى الفجر معها...

كل فجر كانت تنظر كلماته الدافئة على هاتفها المحمـــول، فتدغدغ بسمته سمعها سابحة عبر كلماته:

- "صباح الخير حبيبتي...".

كانت قد منحته حق الهمس بتلك الكلمة - حبيبتي - مرة واحدة كل يوم..

كانت سرهما الدفين في كل فجر.. سرهما البريء...

شعرت منه برعاية الأب التي كانت تفتقدها، وفي المقابل شعرت أيضاً بالمسؤولية نحوه ونحو فرحته البسيطة جداً تلك. كل ما يسعده كلمة حبيبتي يهمس لها بها، فلتكن له..

لكن الآن..

هي ليست قادرة على حماية تلك الفرحة.. هي تجرحه وتعلم..

وهو يُجرح ولا يتألم..

نظرت لهاتفها، لقد تأخر!! .. لماذا اليوم ؟!!!..

ألأنه اليوم لن يحادثها، ربما حقاً لن يفعل! ..

لأنه فقط اليوم، يوم زفافها بآخر......

أخبرها مرة أنه يعرف كيف يسعد نفسه لأقصى مدى هواها، دون حتى أن تشعر هي، وأن سعادتها حقاً تسعده،

وحقاً كان أكثر الجميع فرحة بقرب زفافها، هو حقاً قلب غير عادي. اعتقدت كثيراً أن الروايات تنسج خيالاً عن ذلك الحب الأسمى..الحب الذي كل غايته سعادة الحبيب... يا إلهي.

كيف هو على تلك الصورة!!

..تحتاج صوته الدافئ الآن أكثر.. تحتاج تلمس حاله أكثر..تحتاج الاطمئنان عليه.

الثواني تفلت سريعاً وما زال هو يتأخر، وما زالت هي تنتظر...

ماذا يحدث؟!... هل ذهب إلى الأبد؟!..هل لن.. يحمل الهاتف صوته مجدداً؟!... أبداً ؟!! ...

فإن كان فماذا ....

إن الهاتف يدق الآن أخيراً واسمه يضيء قلبها قبل شاشة الهاتف.. (بابا)..

تخشى أن تجيب، صوته الآن سيكون حزيناً.كان بالتأكيد واهماً حين أخبرها أنه سيسعد يوم أن تزف لحبيبها..

لا لن تجيب.. لن تتحمل ألمه، ولكنها لن تستطيع ألا تجيب!

وأجابت بقلب يرتجف أشد من رجفة صوتها..

يا الله !! ..

صوته يأتي الآن أيضاً مطعماً ببسمته وفرحة قلبه تـــداعب أذنيها هامساً:

- "صباح الخير يا ابنتي ... مبروك..".

ورحل سر الفجر.... مع الفجر.

"."."."

الفهـــــــرست

للمراسلة

alamira ٢٠٠٩@gmail.com